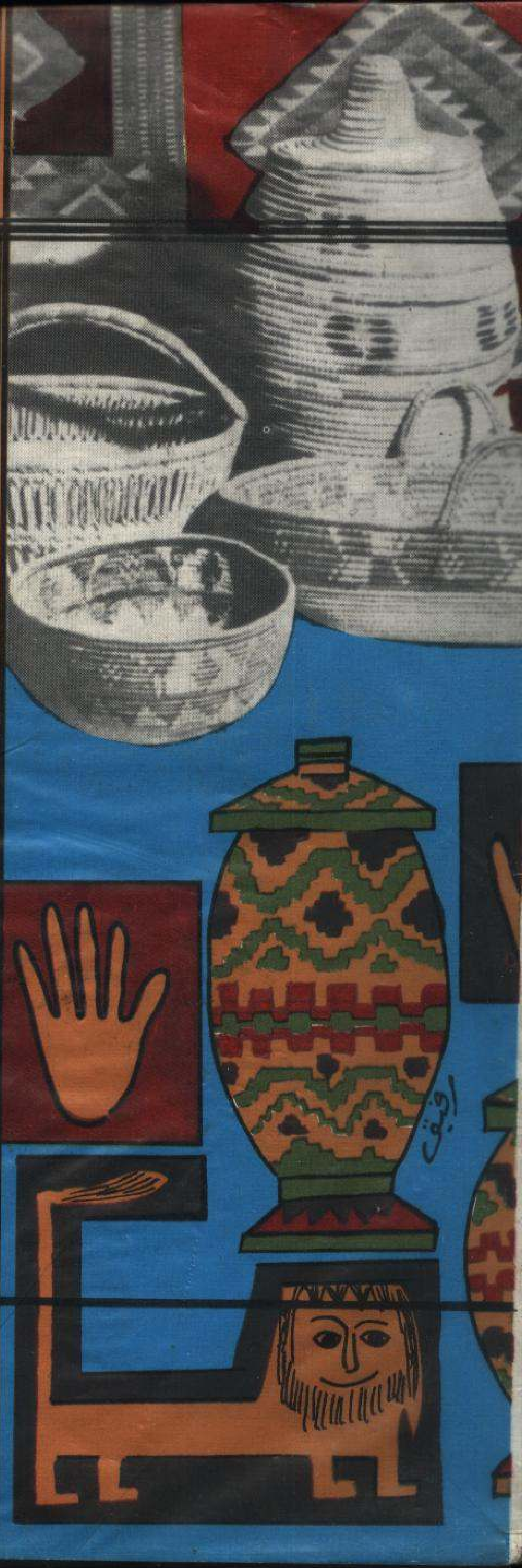
المرتضى

لكتب السودانية

# حكايات من النوبة

تأليف
جمال محمد أحمد

ترجمة وتقديم
د. عبد الحميد يونس



الهيئة المصرية العامة للكتاب

# حكايات من النوبة

تأليف
جمال محمد احمد

ترجمة وتقديم
د. عبد الحميد يونس

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

# اهــداء

الى زوجتى العظيمــة فاطمــة حسن أحمــد
تعبــير حب ووفــاء .

جمال محمد احمد

## حكايات شعبية من قرية نوبية

لقد كانت رحلة ، طالما تشوقت الى القيام بها ، وهى ان اعيش فى النوبة باعتبارها بيئة اصيلة ، لها عراقتها ، الى جانب انها العروة الوثقى فى وادى النيل بين مصر والسودان . ولما عنيت بالتراث الشعبى ، كان من الضرورى أن أنبه الى العمل على مواجهة هذا التراث وتسجيله ، ودراسته فى هذه المنطقة ، التى لها ملامحها ، الى جانب تعبيرها عن سمات الوادى الأصيل .

ولما عرض على الصديق الدكتور مجدى وهبه أن اترجم « حكايات من سرة شرق » ، وهى حكايات شعبية حية ، لايزال الناس يحفظون بعضها ويرددون بعضها الآخر ، بادرت الى الاستجابة الفورية ، باعتبار هذا الجهد من صميم التراث الشعبى ، الذى لايزال مؤثرا فى سلوكنا ، والذى يكشف عن وحدات من الذخيرة الكامنة حتى فى اللاوعى .

ان الأستاذ جمال محمد أحمد عاش فى انجلترا ، واحس بالغربة ، التى جعلته يتشبث بهويته النوبية . ويعود الى وطنه لكى يتخفف من تأثير الغربة ، ولكى يستطيع أن يحقق التوازن بين فطرته النوبية االأصيلة وبين العيش فى اطار المدنية الغربية الحديثة .

ومن أهم مزايا هذه الحكايات ان الأستاذ جمال محمد أحمد لم يكن يقصد مجرد نقلها الى الانجليز والأوروبيين للتعريف بها ، ولكنه اختارها بحوافز الأديب ، الذى ينزع الى تحقيق ذاته ، وهو ما نجده فى حوافزه على الاختيار ، وفى بذل الجهد فى الوصول الى البنية الأصيلة لكل حكاية من هذه المجموعة . وتشبث بالأسماء والمصطلحات ، لكى يعرض الشخصيات والأحداث والأماكن ، برموزها ودلالاتها الأسطورية

والفولكلورية . من ذلك شخصية « العرقبى » وهو وحش من اكلة لحوم البشر ، « والخاتم » الذى يحقق لك كل ما تريد ، وهو شبيه بخاتم سليمان ، الذى ما ان تدلكه حتى يبرز لك جنى ، يحقق لك أمنيتك . وهناك حيوانات ناطقة . وهناك شخصيات تتوسل بالحيلة والخدعة ، وهو قليل من كثير فى هـذه الحكايات الشعبية ، التى تصور ما تمتاز به الثقافة النوبية ، وما يكتنفها من عجائب ، والتى تمتد جذورها الى عصور ممعنة فى القدم ، ولكنها مع هذا كله تحتفظ بهويتها واسلوبها مع الاعتراف بتأثير ثقافات وحضـارات أخرى وافدة ، على مدى العصور .

والتنوع فى الصور الطبيعية بالنوبة من سهول وجبال ، الى جانب الصحراء ونهر النيل والنخيل ، قد عمل على اتساع افق رواة الحكايات حتى انطلقت اخيلتهم من الواقع الذى حددته القرية ، الى خيال ، له من الحرية والتنوع ما نجده فى حكايات « الف ليلة وليلة » .

والواجب يقتضينى أن أسجل أن الأستاذ جمال محمد احمد ، قد وفق ، الى حد كبير ، فى اختيـار هـذه الحـكايات الشعبية ، وفى تقديمهـا الى العـالم ، وهى من الروائع ، التى لها مكانهـا فى التراث الشعبى . وهاانذا أسهم فى نقلها الى القارىء العربى ، لكى يستمتع بها ، ولكى يضيفها الى ذخيرته . ومع ذلك ، فاننى ادعو الى الاهتمـام بهذه الحكايات الأصيلة ، لكى تدرس على منهجين متكاملين ، الأول النقد الأدبى الذى يحقق الذات الجماعية فى بيئتها الخاصـة ، وهى النوبة ، والثانى النظر اليها بالموازنة بينها وبين الحكايات الشعبية فى مواطن اخرى ولغات مختلفة ، وذلك باتخـاذ منهج الأدب المقارن . ومهمـا تغيرت البيئة ، التى اثمرت هـذه الحكايات ، وهى النوبة ، فانها ستظل وثيقة حية على اصالتها ، والأستاذ جمال محمد احمد قد عاش بنفسه التطور ، الذى يشبه الطفرة من القرية ببساطتها وسذاجتها ، الى المدينة المعقدة والمتداخلة ، والتى تخضـع لتغيرات حادة ، تحولها من التطور الى الطفرة .

القاهرة فى ١٩٨٦/١٠/٢٩ — د. عبد الحميد يونس

# وطنى الصغير ( سرة شرق )

كان داود يسميها قرية الصنوبر والزيزفون ، تهكما بها وسخرية منها ، وكان عبد اللاه يقهقه كلما رأى داود يعد حمـاره العتيد لينقض على ظهره ذلك الطويل العريض كسنام على جمل ، يسير به أربع ساعات كاملات ، ليصل من « حلفا » الى « سرة شرق » ، وقد لوحته الشمس ، وشققت وجهه رياح الشـمال . كان يأتى وقد أحـال المسير مرحـه سخطا ، وجسمه الهزيل « بقجة » يصيح وأنـا أعينه على النزول من ذلك السقف « ما الذى يعجبك فى هـذا الوادى غير ذى الزرع ؟ انك لتلوذ به حينا حتى لتخالك اعتصمت به ، وبعدت عنا . ما الذى يعجبك فى هذه الوحشة القاتلة » ؟

وما كنت أعرف فى ذلك الحين شيئا بعينه يستهوينى فى تلكم القرية الصغيرة النائية ، على الحدود بين مصر والسودان ، ولكنى اليوم أعرف . كان يستهوينى فيها كل شىء ولا أغـالى ، ولو عرفت أن تلكم القرية الصغيرة بسكانها الذين لايزيدون على الأربعمائة نسمة ، كانت مسرحا لكل ما يلقى الانسان فى أكبر المواصم فى الدنيا ، لعرفت معى السر . كانت مسرحا للخير والشر والجمال والقبح ، ولأفصـل لك بعض ما أجملت .

***

كان فيها خليل الذى ما عرف الحسنة يوما فى حياته ، كثير الشر ،

---

داود عبد اللطيف وعبد اللاه ابراهيم أبو سن صديقان ، كان أولهما محـاسب المركز فى وادى حلفا ، والآخر القاضى الشرعى للمركز .

قليل الخير . كانت سرة فى ذلك الزمن البعيد ملكا مشاعا لساكنيه . ان زرعت فالزرع للجميع ، وان انتجت بقرتك فاللبن للكل ، وان أرسل قريب لك طردا من مصر ، فالشاى للجميع والحلاوة . ولا يستأثر أحد بشيء دون غيره . ويجتمع الفلاحون عقب صلاة الجمعة ، قبيل الدميرة ينصبون سواقى القرية كلها ، واحدة بعد أختها ، فاذا ما جاءت مياه النيل عكرة حمراء فى بشنس دارت السواقى دفعة واحدة ، تسمع انينها ، نقيق الضفادع فى جوف الليل ، شاهدين صادقين على أن القرية ستهتز وتربو بعد حين .

كان كل هذا يقع بين عينى خليل ، ولكن شيئا منه لم يحرك قلبه العاصى ، تظهر ملوخيته خضراء صالحة للادام أو باميته ، فيسارع يلوثها بروث البقر كى لا تنتفع امراة فى الحى بخضاره ، يلذ له أن يرقد تحت نخلة قريبة من الحقل يرقب نساء الحى يعدن خائبات متجهات نحو بئر « ناس عبد الهادى » ثم يعدن من طريقه فلا يدعهن آمنات . يبصق بصقة طويلة من مضغة دخان أرض الحجر الأخضر ، التى لم تكن لتفارق خشمه الا ساعات الصلاة ، وينهال عليهن لعنا كأن له ثأرا لديهن . ما كان اشبهه بهيشكلف ، كان جلبابه الأخضر قذى للعين وكانت ارجله المشققة تترك على الأرض آثارا لا تخطئها العين .

***

وكان يستهوينى فى « سرة » العم هامان ـ طيب الله ثراه ـ شاركنا سنة من السنين فى ساقيتنا ، فلا أذكر موسما حبب الى الأرض والزرع كذلك الموسم . كنا نتعشى جميعا امام منزلنا على الرمل ، فنجمع « الزبديات » من هنا وهناك ، نجلس جماعات لنأكل ، وكنت حريصا على الأكل معه . يقطع « الكابيدة » بيده قطعا قطعا ليضعها فى الزبدية على الادام ، لبنا حامضا كان أو عدسا غير مدروش ، وكلما وضع قطعة على اختها قال « يا بركة ام موسى » ، فنسأله عن أم موسى هذه ، فيقص علينا الأقاصيص عن مآثرها وبركاتها . ونجلس قليلا بعد العشاء نرقب النجوم فى السماء ، فاذا ما ظهرت مجموعة « الصياد » فى الغرب ، وخرجت الى السماء مزهوة ، صاح فينا هامان ان هيا الى الحقل فنتابط ـ انا وأبناء عمى ـ طوارينا ونتبعه ، ليقسم بيننا الأحواض نحفرها ، ويجلس غير بعيد ينغم الحانا تسرى مع الليل سريان الكهرباء فى أرواحنا وأجسادنا ، ويصيح من وقت لآخر « اكه سكن »

« أصواتكم اصواتكم » فنصيح من ورائه ننغم « الا يلا . قده نره . الا يلا » ومعناها « الأرض مرة . أعنا عليها يارب » فتسكره أصواتنا وصبوتنا فيقف بيننا على عصاه يقوم ( فتح الله اليكم ) واحسبك ادركت ان « اليكم » عليكم وان « يلا » الله .

افراحنا وليالينا ، كانت قرة العين . نرقب أيام الصيف حين يعود « الاكتوبريون » وهو اسم كنا نطلقه على أهلنا الذين يعملون فى مصر فاذا ما اتى الصيف هاجروا الينا ليعودوا مرة أخرى فى أكتوبر ، حيث موسم العمل فى مصر ــ كانت قمصان الكريشه والصدارى الألاجه فوقها قفاطين السكروته تفوح منها روائح الجدة تبهر أعيننــا وكنــا نقابلهــا بجلاليبنا « اللبنية » فنحس بسعادة عجيبة . كانت مراكيبهم الحمر ذوات البوز الطويل ، داخلها أقدامهم الناعمة مفارقة مضحكة لأقدامنــا الحافية المشققة . اما جمسرجان ابو خمسين فكانت ذات نكهة عجيبــة وسحر اغرب حين تقابلها بدخان أرض الحجر الذى كان يلفه الكبــار منا فى ورق رهيف عليه جمل أصهب اسمه استيليوسرباكى .

كان مقدمهم علينــا خيرا وبركة وكان حديثهم الذى تتخلله بعض العبارات العربية ، أشهى الأحاديث عندنا . كانوا عمالقة وكنا أقزاما . يلبس الواحد فينا قميصه اللبنى ، طول الأسبوع فاذا ما اثقله العرق نزلنا به الى النيل وهو على جسدنا الناحل ، ثم علقناه على جذع نخلة نرقبه حتى يجف . فاذا ما جف « اندرعنا » فيه ، واخرج الواحــد منا لباسه الطويل ، ثم قتل ما تيسر من القمل فى الحزة ودعك بالصئبان الأرض دعكا شــديدا ، ثم غسله بطين النيل وامسك به من دكته الطويلة يعرضه للهواء ينتفخ كالبالون ويجف .

***

يعود « الأكتوبرى » وقد جمع من خدمته الطويلة ، ما يعينه على الزواج فتكون افراحه أفراح القرية : رقص وغناء وولائم حتى الليلة المشهورة « ليلة الدخلة » ، وعندما تجنح الشمس مساء للمغيب تنطلق الزغاريد فيخرج العريس فى ملابسه العادية : يحف به شــباب الحى يضحكون ويثرثرون ويتوعدون ووراءهم فتيات الحى يزغردن ويغنين :

**القونه القونه وانقه**

**سفين القونه وانقه**

ومعناها على وجه التقريب « سترى احلى من هـذا قريبـا » ويسير هذا الموكب الصاخب نحو النيل ، فيقفن بعيدا فيه تحت شجرات النخل ، يغنين ويزغردن ويدخل العريس فى النيـل يقوم بأقصى قوة يستطيع كيلا يلحق به الرفاق ، يملأن فمـه بالمـاء أو عينـه ويلف فى المـاء هنا وهنـاك ليفلت من أيديهم المشرعة لنضاله ، والتغلب عليـه ، فاذا ما وصل الى البر أعفى من هـذا القتال العابث وانهال عليه أصدقاؤه تقبيلا ، ثم يتخذ بعد هـذا أبهته عريسا ملتحفا بالحرائر ، مضمخا بالعطور « يقدل » امامهم فى يده عصـاته الموشاة وسيفه الطويل المغمود، ويصعد « القيف » يحمل له الرفاق ذيوله ويهل على الفتيات فيخرجن وراء النخيل يحملن فى أيديهن اغصانا من الشجر ، خضراء يلوحن بها فى الفضاء وينغمن مقبلات عليه مدبرات منه « ارباشللن كوقو تود نقه ووسيادة » ـ وهو كلمـا رشقنه باغصانهن الخضر لوح لهن مرة بالعصاة واخـرى بالسيف ، مأخوذا بالأهازيج من هـذا النوع يا أيتها الرياح الأربعة ، أحرسوا العريس يا سادة » .

***

انها روعات ذهبت ، يا ويحنا ، مع كل الذى ذهب مع المدنية . لقد عرفنـا الصـابون والطشت فلم نعد نغتسـل فى النيـل ولا نعوم فيـه الا لمـاما . لم تعد بالعريس حاجة لأن يعوم حتى منتصف النهر يتحدى الرفاق ويعجب الصبايا . انه يخرج هـذه الأيام من الطشت معطرا بعطور أوربـا لا يحف به أحد ويخرج ليلقى رفاقـه خارج الحوش على المصاطب يقفون ليهزوا يده « مبروك » وما أهزلها كلمـة ، ان قيست بتوقيع الفتيات لاغانيهن التى تكاد تنسى الآن .

لقد تغير وجه القرية ، وانـا اكاد انكرها بعض الأحـايين . لقد استحالت القرية الزاهية الصاخبة بفعل المدنية الى قرية العقل ! والعقل قيد لئيم . كنـا نعيش بغرائزنا الطلقـة ، لا نستحى الا مما يستحى منه ، أما اليوم وقد وقعنا فى أسار العقل فما أهيبنا للضحكة العريضة، والكلمة البذيئة البريئة ـ كلنا يضحك بحساب ولا ينطق الا بصـوت الحكمـة .

***

كانت ليلة الاثنين وليلة الجمعة ليلة الألفة السمحة ، والقرفـة

التى يتذرع بها الناس ليكونوا سـويا . كنا نجلس حلقات حلقات ، او نقف دوائر ننشد أناشـيد نهتز لها ولا نفهمها « صـلاة اللد تفشى المستطيع » فاذا ما فرغنا من ذلك ، جلسنا حتى يقبل الفجر نتسامر . وما أكثر ما كانت الحاجات تقضى فى تلكم الاجتماعات ، أما اليوم فلم يعد بين الحجون الى الصفا سامر !! انقضى ذلك الجمـع بفضـل هـذه المدنية ، التى تنقض علينا من شمال وجنوب .

دهتنا المدنية ــ فيما دهتنا ــ بقوم كثاف اللحى موطئى الرءوس صفر الوجوه . انقضـوا علينا كنار حارقة ، فقالوا لنا ان الذكر شرك الا تسمعون « ان كنت فى هم وكرب فنادنى أنـا المرغنى انجيـك من كل شـدة » .

وقالوا ان الله يأبى الصراخ باسـمه . انطلق هؤلاء بيننا فعلمونا ، طالت صلاتنا الآن طولا مسيخا ، وانفضت حلقاتنا لنستمع اليهم يتلون كلاما لا نعيه ولا نفهمه ، وان كنا نهز له الرؤوس خوف اعـلان الجهل ونضيق بهم احيانا فنقول لهم ان دعوا لنا افراحنا كما كانت فيقولون « لا . التبرج حرام والغنـاء مدعاة للاختـلاط بين الذكور والاناث » وما أقدرهم على الاقتبـاس من القرآن آيـات مقطوعة الأوصـال ، يستشهدون بها على صدق ما يقولون . انهم يريدون بنا الخير فى الآخرة ولكنهم احالوا قريتنا معسكر من الحزم القاتل . لا بقينا على حالنا التى وصف ولا فهمنـا ما يقولون ولكنهم انصـار السنة وانى لأمثالنا أن يناكفوا تلك اللحى والسبح .

كنا يابنى قبل هذه اللحى والسبح نصلى صلاتنا ونخشـع دونما حاجة الى هـذا العلم الغزير : كان جار لنا فانى العمر ، يفتتح صلواته ان « بسم الله الرحمن مالك يوم الدين » وسعيت مرات لأعلمـه فاتحة الكتاب ، فقال لى يوما وقد أعياه ان يحفظ « دعنى وحالى يابنى ، لقد قضيت العمر كله أصلى بالرطانة ولم يمنعنى هـذا ، من ان اكون من أنفع الناس فى زمانى ، ومن اهل الحجى والرأى بين أهلى » وعجبت من صلاته بالرطانة فأجاب باسما لقد كنا جميعا أهل هـذا الحى قبل ان يهبط علينا الشيخ احمـد الأزهرى من مصر نقف للصـلاة فنقول « بسم الله الرحمن الرحيم . اقد نمل فقر نمل فرفكتقون تله قجة الله أكبر » أى « يارب أنـا دابة نعمتك بين يديك فافعل بى ما ترى . الله أكبر » .

ان لم يكن هذا هو التسليم بعينه ، معنى الاســلام ، فماذا يكون الاسلام ؟ لولا شجيرات النخيل أمام بئرنا فى الساقية ، باقيـة كعهدى بها فى صباى ، ولولا قليل من الفلاحين يرعون الصياد كما كنا نفعل فى القديم ، ولولا فلتات من الزمان ابقت على رجـال كالشيخ عبد الغفور يحتفل كما كان يفعل بليالى الاثنين والجمعة أمام داره ، لولا هـذه لقلت ان المدينة اقتطفت من يدنا قرية نعرف ملامحها ونحبها واعطتنا أخرى لا نعرف ملامحها ، ولا نكاد نعرف ان كنا نحبها .

انا اطمع يابنى ان اكتب لك فى يوم من الأيام قصــة هـذه القرية وسترى حين أكتبها لك ولاخوانك ، صدق قولة يقولها الفلاحون فى أوربا ، كلمـا طوفت عائدا لسرة شرق ، أو ذكرها الذاكرون هنـا فى الخرطوم ، ذكرت تلكم القولة الصادقة : « الله يخلق القرى والانســان يصنع المدن » .

جمال محمد احمد

# فى الدميرة

ولكنك يا ابنتى لا تعرفين الدميرة . هو ذلك الشطر من العام الذى يفيض فيه النيل بالخير على ضفتيه . يسمر ماؤه ويعنف تياره وتتناوح فى شواطئه المغمورة اشجار السنط خضراء مورقة . تلقى ظلالها على الماء ، فيقف المحرور على الشاطىء يود لو جلس فى ظل السنط يستروح . وهو ذلك الشطر الذى فيه تجرى المياه فى كل حقل فى القرية وتئن النواعير فيه ليل نهار . كان جدك يدق وتدا قرب الساقية اذا ما ابتدأ الموسم . ويرقب ظله كل آونة واخرى ، فاذا ما تحول ظل ذلك الوتد واتجه للغرب صاح فى زميله « لقد جاء دورى فى الساقية » ثم جاء بأبقاره يسعى . ثم شدها على « الطقم » وجلس عليه يغنى اغانى اذكر انغامها الى اليوم :

**« اقر سقتو وو ديجكو هكم اباسكة غين ديجكو »**

ولكنك يا ابنتى لا تعرفين ما أقول فقد اختطفتك المدينة اختطافا من القرية وما عاد لهذه الأنغام الشجية معنى لديك . كان يندب جده ويقول :

« ما اسعدكم يا قوم ! ما اسعدكم وقد اماتكم الله قبل أن تذوقوا حكم عباس » . وهى أغنية توارثها الناس حتى اليوم .

ورأى بواخره على النيل تجرى يحفها اليسار ، ويتمنى لو أدركه شىء من هذا اليسار ، فلا يستجيب له احد . استغفر الله كان يستجيب له جابى الخراج ، يطوف فى القرية عقب الحصاد مرة لخراج الأرض وعقب الدميرة مرة لخراج النخل . لم يكن جدك ليدرك هذا

النهب المسلح ، فهو لا يعرف من هـذا الذى يسميه الناس « حكومة » الاجابى الخراج . لم يكن يدرك شيئا من هذا ولكنه كان يبين عن نفسه ابانة شجية فيها حزن وفيها برم :

**« اقر سقتو وو ديجكو هكم اباسكة غين ديجكو » .**

***

أما الصبيان فى القريـة ، فقد كانوا يعيشون عيشة مليئـة فى الدميرة . ألم أقل لك أن الدميرة فى القرية ربيع الحياة . كان جدك عتيا كالنيل الذى بعث الحياة فى الأرض وفى الشجرة وفى الزهر . يوقظنى وعمك أخى مع الديك . ويسلم كل واحد منا مسحاته فنسير الى الحقل لنمين مرتسالا لأعلى الحفر : كان مرسال يا ابنتى أثرا من الآثار . رفيقا بنا عطوفا علينا . ولكن المسكين كان محدود الوسائل أمام ارادة سيده . لا يجد طريقا لاشعارنا وده ، ولكنه أدرك اننا نحب أقاصيصه ، فكان يجلسنا حوله كلما غاب جدك لصـلاة يقيمها أو لدنيا يعقدها مع أخيـه الذى كان يعيش للجـاج والخصام والشجار . كما تفعل كثير من أسر القرية . كان مرسال قرة عيننا فى الحقل ، كلما أضنانا الحفر أجلسنا وقص علينا قصة مبهجة مفرحة ، ولكنه قص علينا يوما من الأيام قصته مع جدك وكيف جاءه وسأعيدها عليك فى امسية من امسياتنا القابلة ، فمرسال فى حياتنا أثر لا يمحى .

ونحفر فى الحقل حتى تطلع الشمس من وراء التل فنجرى لنخلع سراويلنا المتربة ونلبس جلابيبنا البيضاء وطواقينا الحمر الزاهيـة استعدادا للدرس فى مدرسة القرية المجـاورة . وكان عمك يا ابنتى كثير اللجاج ، عنيد المراسي . كنا نسافر للمدرسة على حمار أنيق فى طوقه أجراس ، وكان عمك يأبى الا ان أكون أنـا رديفه ، وكانت كبريائى تأبى على ، فالعرف فى القرية هو أن يكون الصغير رديف الكبير . لكنه كثير اللدد تمتعه الغلبة ويزدهيه الظفر ، وكانت أمى تقف بجانبى بادىء الأمر ، لكنه غلبنا جميعا بصـوته الكبير ، وكنت أنـا كعهدك بى الآن ـ اضيق باللدد فاختار كارها المحل الثـانى ويختار مزهوا المحل الأول ، فينطلق بنا الحمار تصلصل أجراسه .

ثم نعود فى الظهيرة وقد انهكنـا الحمـار بعدوه وظهره المسنون وانهكنا المعلم بجدول ضربه وارادبه التى تشرى وتبـاع بلا انقطـاع

وبلا سبب مفهوم . ولكن الدميرة لا تعرف الكلال . والنيل لا يفتأ يغرينا باللعب حواليه وبالعوم فيه . ولكن جدك كان يشفق علينا من تيـاره العاتي ، ويخاف ، فيعمل كل ما فى طوقه ليحفظنا بعيدا عنه ، ولكن وسائلنا كانت عديدة .

***

ينام جدك ليقيل وننام حوله عن يمين وعن يسار فنتناوم معه حتى يتعالى شخيره وكان يشخر كالفحل . ونتسلل من العشة الى النهر فقد كان يدعونا اليه ولا نستطيب الحياة الا فى مياهه العكرة ، نقفز عليها من اشجار السنط ومن قواعد الساقية ومن كل مرتفع فـاذا اتعبنا القفز والسباق جلسنا على « القيف » ــ الشاطىء ــ وصفا طويلا من العرايا السعداء الصاخبين . فنلمح اندادنا على الشـاطىء الآخر يصخبون كما نصخب ، فنصيح نحييهم وتحمل مياه الدميرة أصـواتنا اليهم فيردون التحية فنطرب لهذه الأصوات التى تأتينا واضحة لا ابهام فيها . فيجلسون صفا لقاءنا يغنون فنسمع عنهم ونغنى لهم فيسمعون عنا ، وفجاءة ينتقل هـذا الود اللطيف الى عراك كلامى بيننا فيذكرون امهاتنا بشر ما تذكر به النساء فى عبارات طويلة تحملها مياه النهر الينا صافية نكاد نرى مخـارج الفاظها . ثم يسكتون ، ليستمعوا الينا نرد ايذاءهم بايذاء ، وهـكذا حتى تنـال الشمس المحرقـة من ظهورنـا العارية فنعدهم الغداة بذاء ببذاء ونصيح نستودعهم الله ــ أى والله نستودعهم الله وندعو لحقولهم بالخير ويدعون لأبقارنا بالضرع ثم نلقى بأجسامنا المحرورة فى المـاء ونلبس على عجل لنطير الى العشة قبل ان يستيقظ النوم من رقدة القيلولة ، فنرقد حولهم نشخر . واذا كان الغد عدنا الى رفاقنا وجلسنا جلستنا تلك وبدانا سبابنا لاندادنا على الشاطىء الآخر بتحية كتحية الأمس عاطرة وختمنا لقاءنا عبر النهر بدعوات صادقات كدعواتنا أمس واليوم قبله .

***

لكن الدميرة يا ابنتى لم تكن صفاء صرفا كما قد تتوهمين . كان الكبار يفسدون الحياة على الصبيان لا ضيقا بهم ، ولا بغضا لهم ، ولكن خوفا عليهم من النيل ان يلتقمهم : كان سليمان احد الرفاق فى القرية ولكنه كان يكبرنا بضـع سنين وكان يستطيب المخـاطرة على النيل ،

فالنيل مفر لفتوته ، يدعونا اليه كل ظهيرة . طاب لسليمان فى يوم من الأيام ان يأخذنا على « معدية » القرية الى الشاطىء الآخر ، فدخلنا معه القارب ، وكان يعرف كيف يدير الدفة وكيف يفك الشراع ، وما الى ذلك من الأشياء التى لا يحذقها الا معداوى القرية . وكان شيطانا كما يقول أهل القرية .

ثم انتصف بنا القارب النهر فاذا امرأة على الشاطىء تولول واذا الناس من القريتين يجتمعون على الشاطئين يصرخون ويبكون على ابنائهم فى القارب فالنيل عتى التيار وأحذق المداويين يجد عسرا شديدا فى معالجة القارب . لكن سليمان استطاع بحذقه ان يصل بنا سالمين الى الشاطىء ، وانقض عليه اهل القرية واوجعوه ضربا بعصى اقتطعوها من النخل والاثل والسنط ثم عادوا بنا الى الشاطىء الآخر فخرجنا من القارب تقبلنا أمهاتنا ويصفعنا اباؤنا . اما سليمان فقد امسك به خفير العمدة وشد وثاقه وسار به على التو الى منزل العمدة والقرية كلها خلفه ، يبكى عليه اقاربه من الناس ويتوعده بالشر كل أب .

سأعفيك يا ابنتى مما وقع لسليمان ، ولكن أحب أن اذكر لك أن العمدة أمر بأن يعلق سليمان ــ نعم يعلق ــ على باب داره كما يفعل الجزار بالخروف . وظل سليمان معلقا يبصق فى وجهه الآباء ويضربه الخفير من وقت لآخر حتى انقضى النهار فتسلمه ابوه وحمله على أكتافه الى الدار .

وأصبح الصباح فما عرف احد اى أرض ابتلعت سليمان ، وخرجت القرية رجالا ونساء تبحث عنه وراء التلال وتقتفى اثره على الرمال . ثم عاد النساء والصبيان وشد الرجال حميرهم وجمالهم وحملوا زادهم من الماء والبلح واقتحموا الصحراء فى اثر سليمان .

لكن سليمان لم يعد الى القرية ، انها شدت وثاقه وبصقت فى وجهه لانها تحب له الخير ولكن سليمان أبى النفس عزيز الجناب .

# مقدمة

من عهد هيرودوتس والبلاذرى الى عهد كروان ونجم الدين اثارت النوبة اهتمام علماء ورحالة وشعراء . ولم تتوقف ابدا عن اغرائهم ، ولكنها لم تشبع قط فضولهم . وليس الاهتمام بها الآن اعظم مما كان ، ولكنه لايزال شديدا كما كان دائما ، بل انه اعظم فى بعض الوجوه مما كان من قبل . والنوبة مصممة على ان تكتم أسرارها المثيرة فى شغاف قلبها ، تحرسها عن كثب الرمال والصخور . وقد ساعد التاريخ والجغرافيا على الحفاظ على أن تتحاشى النوبة الكشف عن أسرارها وكذلك على قصور الأدوات التى تحت تصرف الانسان حتى وقت قريب . وكان يمكن أن يكون هناك قصص بهيجة عن « الأحباش » أكثر من ذلك لو أن الصحارى والوديان التى يتعذر طرقها سمحت لهيرودوتس ان ينفذ الى « اثيوليا » التى كانت بالنسبة له تبدأ فى أسوان . وليس من شك فى أن كيراون كان سيمضى بضع فصول أخرى فى عمله الذى يتعشقه فى فرس وبلانه لو لم تعجل معركة بين الناصر ودلس باطلاق وثاق مياه النيل الى النوبة جنوبا . واستمر السكون المخيم يرين على النوبة الى أن صدم العالم بالعلم بها . وقد كانت حتى وقتذاك تحجبها عظمة مصر التى استنفدت كل طاقات الناس ومواهبهم وأموالهم ، التى كانت نادرة ، على أية حال .

ومن ثم فان العالم أقبل الى النوبة اقبالا يتسم بالشهامة والحماس وبمعدات ومعرفة جديدة . وكان لسرة شرق نصيبها من كل هذا ، على الرغم من أنها كانت مجرد بقعة صغيرة فى خريطة النوبة غير الكبيرة .

واقبل علماء آثار وجيولوجيون وجغرافيون وفنانون ومحبون للفن . ومؤرخون الى المنطقة زرافات . وسافر مصورون فوتوغرافيون وصانعون للأقلام ودارسون يتوقون لمعرفة الحقيقة من الجامعات الأوروبية والأمريكية بالسفن فى النيل من الشلال أو قاموا برحلة بالقطار من الخرطوم الى وادى حلفا ثم فى النيل الى سرا . وكانت سرا تنبض بالحياة خلال الخمسينيات والستينيات . والحق انها فى خلال تاريخها الطويل لم تعرف قط مثل هذا السيل المتدفق من الناس والآلات . « لقد تبدد سكون وحركة ما تنطوى عليه من سحر » وكان أول سحر تبدد هو سحر الشيخ نور .

والشيخ نور ولى يسبغ حمايته على المنطقة . وكان كل شيء عذرا وجيها كافيا لسرا لكى تنطلق الى الشيخ بجوار النهر وعلى الربوة والاحتفال به . وكان ضريحه فى أعلى ربوة ، ويقع فى موضع تم اختياره بالعدل والانصاف بين سرا والقرية الواقعة وراءها ، الى الشمال — ارتينوح : « قلب الجزيرة » . وكانت تحيط به ربى وتلال صغرى ، كلها تعتبر مقدسة . وذات صباح جميل نسفت كلها وسويت بالأرض تماما . كان يوما غريبا بالنسبة لسرا . ولم ينتقم الولى لهذا العمل الذى لم يراع حرمته ، وكان يوما احس فيه بالاذلال من اعتقدوا انه من اصحاب الكرامات لدرجة تكفى لأن يتشفع لهم عند الله . ولم يشعر ايضا بالسعادة آخرون ممن استبعدوا هذه المعتقدات ، على اعتبار انها مجرد حيل من الشيوخ الماكرين الذين كانوا يعيشون بخداع السذج والسليمى الطوية . فموضوع جحودهم لم يعد قائما . ذلك ان الجحود لا يعنى شيئا بدون موضوع للايمان . وكان هناك حزن يرين على كل جانب ورائحة تنذر بالمصير المحتوم . وادت الحقول الخالية من الزرع والرمادية والشجيرات المشبطة الى اشتداد الاحساس بالحيرة والألم . فقد اشير على الناس الا يزرعوا فى هذا الشتاء ، لأنهم سوف يرحلون فى ابريل . وقام بفك دواليب الماء مقاولون بارعون ، كانوا مشغولين بشراء الهجد « الخرائب » .

وقد سلمت سرا بوجودها فى هذا الموضع ، والحق أن وجودها المستمر لم يكن موضع جدل . فحتى تلك الأيام فى ابريل سنة ١٩٦٣ ، عندما ركب السروكى ، ساكن سرا القطار ، ولم يعد جزءا من النوبة الكبرى ، كان يعتقد انه مخلد . وانه سوف يبقى دائما فى سرا ، طوال العمر الذى يعيشه الانسان على ظهر الأرض . فهذه الأحداث وقعت

لآخرين ولم تحدث له . تلك كانت تجربته وان كان لم يعرب عنها . ولم يكن بالمرء الذى يطويه آخرون . فهو نفسه جزء من تيار تاريخ له « ألسنة » عديدة . وهو رجل معقد كل التعقيد لايمكن ان يجرفه مد تاريخ . وقد ظل سيروكى يجمع ويدمج « ألسنة » تاريخ عبر قرون . وسوف يقول باغتباط « دنياج أوجارننان » اى « بنى العالم » . كما لو كان ذلك لم يحدث الا أمس . وضروب الدم التى تجرى فى عروقه عديدة وكذلك الثقافات والحضارات التى تتقارب فيه ، وهو يقف هناك بجانب النهر يرقب موكب الأمم وهى تذرع النيل هنا وهناك لقد كان هناك قبل أن تنشق صدفة النوبة على يد الغزاة والتجار منذ أربعة آلاف عام فى سنة ١٩٧٠ ق.م وقد شهدت النوبة واختلطت بأمم من العالم ، خالصة من الأخلاط كما هى اساسا ، وان كانت تعيش فى أقاليم مناخية أرق والطف وفى بلاد أكثر انتاجا .

وقد شهدت سرا قدماء المصريين وهم يجرفون فى قواربهم هنا وهناك فى النهر سعيا عن تجارة وأرض . وشيدوا « البربهى » الذى أصبح ضريح الشيخ نور ليحرس مصر من المغيرين عليها من الصحراء لنهب ثرواتها . وجاء فيما بعد الاغريق وهم متمنتون جدا لدرجة انه لايمكن أن يزعجهم اى احد آخر او يزعجوا هم غيرهم .. وجاء على أثرهم رومان كثيفو الشعر مفتولو العضلات واختفوا ، وحل محلهم اناس متضجرون ومتبرمون ، يشنون حروبا لا طائل تحتها فى بلاد بعيدة سمعوا عنها ولكنهم لم يروها قط . وكان هؤلاء الفرس . وقد مضوا كعاصفة . وكانت هناك وقفة عندما وقت الزمن ساكتا . وكانت سرا متأهبة لتحول فى تاريخها . وجاء به المبعوثون من بيزنطة .

ولم يكن هؤلاء مثل الرجال الذين واجهتهم من قبل ، الذين يتكلمون برقة ويرتدون ملابس زاهية بهيجة ، ويتلهفون الى الكلام . وكانوا أيضا شجعانا لا يرهبهم شىء . ولم يحتموا بالأمان النسبى لقوارب .. وكانوا معظم الوقت يسعون كادحين على طول الجبال الوعرة والرمال الناعمة كالدقيق للنوبة . وحملوا فى اليد اليمنى هراوة ، وكتابا يمسكون به قريبا من القلب تحت الابط . ولم يجد السروكى أن من الصعب عليه ان يستجيب فقد تعرض للمسيحية . وعلى الرغم من انه اليوم مسلم ورع فان أعظمنا جهلا يعرفون شيئا عن هؤلاء الرجال من بيزنطة ، وكان عمى يقول دائما أن سرا مشتقة من اسم مسيحى حكمها يوما . وكان اسمه الحقيقى هو زرنيخ ، كما يؤكد فى كل مرة

يثور فيها الجدل حول اصـل الاسم . وقد كانت ثمانمائة سـنة من المسيحية ، من جهة منبعها ، فترة طويلة كافية لاحـداث شقاق ونزاع بين علمـاء اللاهوت . وكانت مواقفهم معقدة جدا لدرجة لا يدركها أحد وكانت لغتهم عسيرة جدا على الفهم . وكانت تقريبا حـكاية غثة عن المـاضي ومع ذلك فانها تركت آثارا عديدة فى تيار دم الناس حتى عندما اقتحم الكتاب الفتى الغض الاهاب القوى طريقه الى النوبة .

وتدرجت النوبة من مراقب الامم الى بلد يسعى الناس اليها . وقد انزلقت الى مرحلة اجنحة العالم الأشد ظلاما بعد ناباتادوميرو ، ولكنها وجدت طريقها لتعود اقوى الى مركز الاهتمـام بعد أن مستها بعمق المسيحية أولا والاسـلام فيما بعد . وغدت وقتذاك نابضـة بالحياة لدرجة تكفى لاثارة الاهتمـام ولم يعد العالم غافلا عنها . واكتسبت وجها جديدا له ملامح مميزة .

# فاطمة ذات الخلخال

**تزوج** رجل من امرأة ، وأنجبت منه فاطمة وحارث • ولم يقدرا على خلخالين ، فابتاعا لها خلخالا واحدا • وذات يوم نزلت فاطمة الى النهر لتستحم مع صويحباتها ، وعندما خرجت من المـاء اكتشفت أن الخلخال قد انخلع من كاحلها • فاغتمت فاطمـة وارتاعت •

وأعلنت أمها على الملأ أن من يجد الخلخال ويعيده الى فاطمـة ، يكون له الحق فى الزواج منها • فاندفع الفتيـان الى النهر • اذ لم يستطع أحد من الفتيان أن يقاوم رغبته العارمة فى أن تكون فاطمـة زوجة له •

وكان أخوها حارث هو الذى عثر على الخلخال • بيد أنه ألقى به ثانية فى النهر • ولكنه عثر عليه فى اليوم التالى مرة أخرى • وفى هذه المرة أخذ الخلخال الىأمه فأعلنت الأم للملأ ان فاطمة ذات الخلخال ستكون من نصيب أخيها حارث •

وفى ساعة متأخرة من الليل تسللت فاطمة من دارها ، وجمعت سبعا من صويحباتها الفتيـات وقالت لهن : « هيـا بنا نهرب أيتهـا الفتيات » هيا بنا نذهب • فها هى نهاية العالم • ان الفتيان يحق لهم الآن أن يتزوجوا من اخوتهم ؟ ! فارتبـكن ، ومن ثم فانه عنـدما استحثتهن فاطمة مرة أخرى انقدن لها وفى ظلام الليل سرن نحو التلال ،

خلف صف المنازل التى تقع أسفلها ، وسرعان ما أصبحن على الجانب الآخر من التل ، وذرعن الوادى الواقع خلفه من أوله الى آخره ، ثم جلسن ليرحن أقدامهن حينا من الزمن • ورأين على مبعدة ، خيمة ، تلفها غياهب الظلام ، فسرن نحوها •

واذا بهن يجدن أن ساكن التل هو العرقبى • وفى تلك الأيام كانت تلك الأرض عامرة بوحوش مريعة تقتات بلحم البشر • وتسارعت دقات قلوبهن ، ولكن تبين لهن أن العرقبى شخص يضم فى حنايا صدره قلبا رقيقا ، فقد سمح لهن بأن يجلسن ، وأعطاهن قصعة مليئة بثريد باللبن • وساور القلق فاطمة فحذرت الفتيات قائلة : « اياكن أن تلمسن هذا الطعام انه سوف يصيبكن بالدوار فلا تلمسنه !! » ولم تدرك صغرى الفتيات كنه هذا الكلام ، وشرعت تأكل ، فلكزتها صديقاتها • ولاحظ العرقبى ما كان يحدث فقال : « هلا تركتنها وشأنها » ففعلن هذا • وبعد ذلك بقليل استغرقن جميعا فى النوم لأنهن كن متعبات •

وسمعت فاطمة أصواتا عالية غريبة ، وخيل اليها أنها فى حلم• سمعت صوتا يقول « كراشى كراشى » فأرهفت أذنيها • انه ليس حلما• فقد كان هذا صوتا صادرا من خنجر يقوم العرقبى بشحذه • واستمر الصوت « كراشى كراشى » فتنحنحت فاطمة •

فقال العرقبى متسائلا : « ماذا بك أيتها الصغيرة » ؟

فردت عليه فاطمة بقولها : « اننى لا أستطيع النوم » •

فقال لها العرقبى ناصحا : « ما عليك الا أن تغمضى عينيك وتخلدى للراحة » •

فقالت فاطمة : « ولكننى لا أستطيع » •



فسألها العرقبى : « أهناك ما يضايقك يا ابنتى » ؟

ــ نعم . هنــاك كثير من الديكة ، تصيح كلهــا معــا . اننى لا أستطيع أن أنام .

فخرج العرقبى من جانب الباب ، وصاح بأعلى صوته : « أيهــا الرجال ، وأيتها النساء . هلا أخذتم كل ما لكم من ديكة . ان فاطمة ذات الخلخال هنا ولا تستطيع أن تنام . فهلا أمسكتم بها . أتسمعون ما أقول » ؟

وعاد واستأنف شحذ خنجره « كراشى كراشى » .

وتنحنحت فاطمة مرة أخرى وتأوهت . كانت الكلاب فى هــذه المرة هى التى تنبح . فخرج العرقبى ، ووقف بجانب الباب وطلب من الجيران أن يمسكوا بكلابهم . ولبث يترقب ساكنا مرة أخرى . ولكن فاطمة تنحنحت ثانية فانزعج العرقبى وقال :

ــ ماذا تشكين منه هذه المرة ؟

ــ لقد اعتادت أمى أن تأتينى ببعض المــاء من النهر لتساعدنى على النوم .

ــ حسنا . ان هذا آخر شىء أفعله لك .

وانطلق نحو دلو فى ركن الخيمة .

فقالت فاطمة فى ابتهال : « ولكن أرجوك ، لا تحضره لى فى دلو بل فى غربال . فقد كانت أمى تحضره لى فى غربال » .

فوضــع العرقبى الدلو على الأرض ، والتقط غربــالا من ركن آخر ، واتخذ طريقــه نحو النهر . وكان كلمــا ملأ الغربال بالمــاء تسرب من الثقوب الصغيرة . ولكنه ظل يحــاول .



وأقبل الفجر • ففرت فاطمة وصويحباتها للنجاة بأنفسهن ولم يستطعن أن يحملن صغراهن •اذ لم تكن على ما يرام • وكانت فى الواقع مشلولة • فتخلفت عنهن وبقيت مع بنات العرقبى السبع •

واستشاط العرقبى غضبا عندما عاد • فذبح بناته والفتاة الصغيرة التى أكلت الثريد • وخرج ليقف بجوار الباب مواجها الشمس وهى تشرق • وتضرع للسماء قائلا :

« لتدفع السماء فى قدمك شوكة لا تنتزع منها أبدا الا بأنشوطة من شعرة تؤخذ من عانتى • واننى لأرجو أن أمسك بك وأنت منهمكة فى جمع الذهب واللآلىء والجواهر من كل نوع • وبدأ مسيرته الطويلة • كانت الشمس كرة ملتهبة من النار ، عندما أقبلت فاطمة وصويحباتها الى سفح تل منعزل فى الوادى • وكان سفح التل يتوهج فى ضوء الشمس ، فقد كان هناك ذهب ، وكانت هناك لآلىء وجواهر • وسحرت بها الفتيات فحذرتهن فاطمة قائله : « لتأخذ كل واحدة منكن أيتها الفتيات حفنة واحدة • وهيا اهربن للنجاة بأرواحكن الغالية » فأطعنها • وبينما كن يجرين بعيدا اذا بشوكة هائلة تدخل فى قدم فاطمة ، فلم تستطع أن تجرى ، ولكن كان فى وسعها أن تتكلم فقالت لصويحباتها : « هيا اجرين ، أتوسل اليكن • اجرين » • فرفضن ، بيد أن فاطمة أصرت قائلة : « هيا ولا تتوقفن اجرين • وانتظرننى عن كثب وسوف ألحق بكن فى خلال ثلاثة أيام ، وفى خلال ذلك الوقت اعتبرننى من الأموات ، هيا اجرين يا صديقاتى » •

وظلت ترقبهن وهن يختفين وراء الأفق ، وعندما إستدارت رأت شجرة • ترى هل كانت هناك طوال الوقت ؟ أم تراها نزلت وهى تترنح من أعلى لتستقر هناك منذ هنيهة ؟ ترى هل ربتها الأرض الأم

فى جوفها هناك ؟ لا يهم لقد خاطبتها فاطمة على هذا النحو بقولها : « يا شجرة أمى وأبى • ارفعينى الى أعلى • ارفعينى » •

وبينما كانت فاطمة تصعد وصل العرقبى ، ولم يكن يبدو عليه أى أثر ينم عن التعب الذى أصيب به الشىء العتق والغول الهائل • ورمقته فاطمة من أعلى الشجرة • ولكنه فجأة لم يعد هناك • لقد اختفى • وكانت هناك فتاة صغيرة نحيلة خجول •

وقالت الفتاة الصغيرة الخجول : « اجذبينى الى أعلى نحوك : فأنا وحيدة أعانى من الوحشة » •

فقالت فاطمة : « وأنا أعانى من الوحشة وفى حاجة الى صاحبة » •

فقالت الفتاة الصغيرة الخجول : « اننى لا أستطيع صبرا » •

فقالت فاطمة فى حزم : « اذهبى وأحضرى ذلك التل الصغير فأنا بدونه لا أستطيع أن أجذبك الى أعلى نحوى • اذهبى » •

فاختفت الفتاة الصغيرة الخجول • ورأت فاطمة العرقبى وهو ينصرف • وعاد معه التل الصغير ووضعه بجانب الشجرة ، وتطلع الى أعلى ، وكانت هناك قطعة من شعر فاطمة تتدلى ببطء •

وقالت فاطمة : « امسكى بهذه » •

ففعل • وكان قاب قوسين أو أدنى منها عندما أسقطته على الأرض ، بصوت كالقرقعة وقالت :

« أواه يا عزيزى هل أصبتك بأذى » ؟

كان العرقبى قد أصيب بضربة شديدة فى رأسه فتمتم قائلا : « لا ، يا فاطمة • ان كل ما أريده هو أن أقبلك » •

— تعال • فأنا أيضا أريد أن أقبلك •

ومرة أخرى كان وشيكا بأن يحقق أمنيته•• ومرة أخرى تركته فاطمة يسقط • ولم يكن العرقبى بالشخص الذى يستسلم • وحاول مرارا وتكرارا حتى لم يعد فيه رمق • ومات متأثرا بالصدمات التى تلقاها على التل الصغير •

ونزلت فاطمة • وتنفت شعرة من عانته ، وانتزعت الشوكة من قدمها وهرعت بعيدا • كانت صديقاتها قد أصبحن فى حالة يرثى لها من الارتباك والحزن • وكن ينظمن عقودا مما لديهن من لآلىء وذهب ، وعيونهن محمرة من الحزن والبكاء وقفزن جميعا من الفرح ، وطوقن عنق فاطمة بأذرعهن وكللن رأسها بالعقود التى نظمنها ليزين بها أنفسهن• وضحكن وبكين على التعاقب • ثم اتخذن طريقهن مرة أخرى • وسرعان ما قابلن زراعيا يمسك فى يده عصا كان يستريح تحت شجرة وارفة الظلال •

فسألته فاطمة : « هل أستطيع أن أستعير عصاك أيها الراعى الصالح » ؟

ـ بطبيعة الحال يا صغيرتى •

فضربت فاطمة ورق الشجرة برفق فتساقط علف جميل للماعز • فتطلع الرجل العجوز فى عجب • فقالت له فاطمة بسرعة :

كيف تسلخ جلد رجل عجوز ؟

ـ أتريدين أن تسلخى جلدى يا ابنتى ؟

ـ لا ، جلد شخص آخر •

ـ آه ، حسنا ، حاولى أن تضربيه بشدة على الرأس بهذه العصا بالذات •

فضربته بشدة • فلم يحدث شيء • وقالت انها لم تقصد أن تضربه ومع ذلك فعلت هـذا مرة أخرى • وفى هذه المرة قالت وهى تضرب : « هيا اخرج يا جلد الرجل العجوز » فحدث هـذا • فقد كانت تلك هى الكلمات السحرية • وتدثرت فاطمة بجلده وبدت فاطمة كأنهـا رجل عجوز •

وفى الطريق التقين بسبعة رجال يقومون بالصيد والقنص وكانوا هم السلطان ووزراؤه • وطلب الوزراء من السـلطان التصريح لهم بالزواج من الفتيات : فنظر السلطان الى الرجل العجوز وقال : « حسنا ان هـذا الرجل العجوز من نصيبى انه يصـلح تماما لرعايـة قطيع ماشيتى » •

وسأل قائلا : « أيهـا الرجل العجوز ، هـل تستطيع أن ترعى جيادا » ؟

فقالت فاطمة : « لا ولا ماعز ، ولا كباش ولا جمال » •

فقال السـلطان : « ان لدى فى قصرى بركـة للبط • وهى فى حاجة للرعاية » •

فقال الرجل العجوز : « أستطيع أن أفعل هذا » •

وبجوار البركة جلست فاطمـة وهى مزينة بجواهرها وترنمت تقول :

عندما جاء اليوم
ليكون أبى حماى
وتكون أمى
حمـاتى •

ويكون أخي حارث

شقيقي أنا

زوجا لي

فماذا بوسعي أن أفعل سوى أن أرعى بط سمير ؟
وكان سمير هو الابن الوحيد للسلطان •

واهتزت فاطمة طربا بصوتها ، وتجردت بعد ذلك من ملابسها ، وغطست في البركة •• كان هناك رجل يتطلع من بعد • ففتن وتحرك • ومع ذلك فانه لم يستطع أن ينبس ببنت شفة لأنه كان أخرس • وفتن بسحر جسدها •

وفي الليل اتخذ طريقه الى بلاط السلطان • وأخذ يومىء ويشير بيديه • ولم يستطع السلطان أن يدرك كنه ما يقصده بحركاته • وفي الليلة التالية انطلق الرجل الأخرس وذهب في الليلة التي تليها • فثار فضول السلطان • وذات يوم سمح للرجل الأخرس بأن يقتاده إلى شجرة لا تبعد عن البركة •

وانتظر السلطان وانتظر وهو يقول لنفسه : « ان هذا الرجل ليس أخرس فحسب ، بل انه مجنون أيضا » • ولكن خجبا ! فها هي ذي الفتاة تأتي وتلحق بالبط في البركة • وظل يرقب ويرقب • وكان خبيثا • واستطاع بيد عصاه أن يرفع خاتما من حليها • ولمعت عيناه اذ خرجت فاطمة لتلبس • وكانت تغني قائلة :

اذا قدر أن يكون أبي

حما لي

وأن تكون أمي

حماة لي

وأن يكون أخى حارث

والدا لأطفالى

فان على أن أرعى

بط السلطان

وبط سمير ابن السلطان .

وعندما التفتت لحليها اكتشفت أن خاتمها قد ضاع . وسمعت ورأت الرجل الأخرس فأمسكت به من قفاه . فقهقه ضاحكا ، ونظر الى أعلى الشجرة . فنظرت الى أعلى أيضا وشرعت تضربه بقبضتيها الصغيرتين . فتطلع الى أعلا وقهقه ضاحكا .

فقالت : « لا . لا شأن للسماء بخاتمى » ووجد السلطان فى هذا تفكهة وتسلية . وترك المعركة تدور ، ولكنه أسقط الخاتم أخيرا من أعلى الشجرة . فانطلقت فاطمة وارتدت الملابس وتزينت بالحلى وكل شىء . ولم تر السلطان وهو جاثم فى الشجرة يرقبها .

وفى صباح اليوم التالى قال السلطان للرجل العجوز : « لا حاجة بك لأن ترعى البط اليوم . وسوف أرسل عبدا بدلا منك . فابق فى البيت وقدم الغداء » . ولم تكن فاطمة سعيدة بهذا ، ولكن كان لابد من أن تطيع .

وفى الغداء أمر السلطان العبيد بتقديم الطعام . وصفقوا . فحملت فاطمة ، وهى ترتدى جلد الرجل العجوز الصينية ، ولكنها أسقطتها ــ يا للرجل العجوز المسكين . وفى المرة السابعة سار الرجل العجوز المسكين وهو يترنح نحو السلطان ووضع الصينية سليمة أمامه . فقال السلطان : « تعال وهيا بنا نلعب السيجة » .

ــ « موافق يا صاحب العظمة السلطان » .

ـ اذا غلبتك فسوف أشق بطنك . واذا غلبتنى تشق بطنى . اتفقنـا ؟

ـ نعم يا عظمة السلطان .

وغلبته فاطمة ولكنها قالت : « لقد عفوت عنك بسبب هـذا القصر » . وغلبته مرة أخرى وعفت عنه بسبب الجياد فى حظيرته . وفى المرة الثالث عفت عنه من أجل خاطره هو سلطان البرين والبحرين : وتغلب عليها السلطان وقال : « تأهب أيها الرجل العجوز فسوف أشق بطنـك » .

فتوسلت اليه فاطمة . لقد عفت عنه ثلاث مرات ، ولكن السلطان لم يتأثر بتوسلاتها . ومزق الجلد الذى كانت فاطمة تشتمل به واذا بها هناك ... رمز يدل على قدرة الله وبدر ساطع فى السماء ، ونجمة فى الصباح .

وكانت المدينة تعج بشائعات . لقد تزوج السلطان من رجـل عجوز وأنجب له الرجل العجوز توأمين . فأمر السلطان باقامة وليمـة فى المدينة ، وتكشف كل شيء . ووصل السلطان وهو يحمل التوأمين بين ذراعيه وفاطمة تسير بجانبه ومضى حوله يحيى رعاياه . فدهشـوا جميعا . انه لم يتزوج رجلا عجوزا بل مخلوقة من أجمل مخلوقـات الله .

***

اننا نحفر الأرض ونبذر الحب ، ونلوذ بشباك النبى .


حكاية فاطمة وسليمان
فاطمة وسليمان

# رجـل الحمـار

**كـان** هناك ذات يوم شقيقان . أحدهما كان بارعا والثانى غير بارع . وكانا يرعيان ماشيتهما بجانب النهر كل يوم .

وكان الفتى البارع يبقى عادة ليعنى بالماشية : أما شقيقه غير البارع فكان يذهب للبيت لتناول طعام الغداء وليحضر لأخيه الآخر الطعام . وكان الفتى غير البارع يحشو معدته فى البيت ، ولكنه عند عودته الى شقيقه اعتاد أن يتوقف بجانب شجرة ويدفع غداء شقيقه فى فتحة فى جذع الشجرة . وكان يتفكه بهذا العمل ويغالب نفسه من الضحك وهو يروى القصة لشقيقه . ولكن شقيقه لم يكن فى وسعه أن يتغدى بنكتة سخيفة كل يوم . فاقترح الفتى البارع أن يقوم كل منهما بدور الآخر ، ووافق والداهما .

وأخذ الفتى البارع يتناول غداءه فى البيت ويحمل غداء شقيقه فى قصعة ملفوفة فى قطعة من القماش وذات يوم لم يكن هناك شقيقه حيث ينبغى أن يكون بجوار ضفة النهر . فصاح بأعلى صوته : « حمد ، حمد » . فصاح شقيقه يرد عليه من وراء بعض الأشجار الكثيفة « هاأنذا هنا » . فمشى الفتى البارع على قدميه بين الأشجار ووجده هناك . كان منهمكا فى فتل حبال من كوم من لحاء الشجر ، رص فوق بعضه بجانبه . فقال الفتى البارع متسائلا وهو يضع قصعة

الغداء على الأرض : « ماذا تفعل بحق الشيطان ؟ » فتطلع حمد الى أعلى ، وهو يبتسم ابتسامة عريضة ، وأشار الى أعلى الشجرة . فنظر شقيقه الى أعلى فى ذلك الاتجاه . كان أحسن قسم من القطيع معلقا رأسا على عقب بالحبال التى فتلها حمد . فتساءل الفتى البارع قائلا : « ولكن لماذا ؟ » فقال حمد : « هذا أمر عجيب ! ألا يمكنك أن ترى ؟ » فقال الفتى البارع : « ماذا فعلت أيها الغبى ؟ » فقال « لا تقل اننى غبى . ان الماعز تأكل مباشرة من الأوراق الخضراء هناك فى أعلى الشجر لأن رءوسها هناك » . فلم يتمالك الفتى البارع نفسه . وظل يضحك طويلا دون أن يتوقف . ولم يفهم حمد شيئا . وعندما أدرك أنه قتل الماعز التى أراد أن يطعمها علفا أفضل ، تملكته الدهشة . فقال : « عليها اللعنة . انها بدلا من أن تأكل تلقى مصرعها . أنى للمرء أن يستطيع مساعدة الماعز الغبى العجوز » ؟

ولم يعتقد الفتى البارع أن فى وسعه أن يلتقى بوالديه . فسار بعيدا عن النهر وعاد الى الصحراء ، وهو يشعر بالخجل ولا يريد أن يواجه الهرج والمرج فى البيت . وسار خلفه حمد بخفة ورشاقة ، وهو يتمتم حانقا ! « ماذا فى وسع المرء أن يفعل ليمد يد المساعد ؟ ليس كثيرا بل يقتفى الأثر » . وتعب الشقيقان بعد أن سارا طويلا . وكان لديهما بعض العدس فى حقيبة ، واستقر بهما المقام ليتناولا وجبة فى الليل . ولكن سرعان ما قوطعا وهما يتناولان وجبة الطعام . اذ برز من الظلام قاطعا طريق وشرعا يضربان الولد البارع ، بينما كان حمد يتثاءب .. ولم يتحرك حمد حتى اكتشفه أيضا أحد قاطعى الطريق ! ولكن بالقاطع الطريق المسكين . لقد ضربه حمد بشدة على الرأس برجل حمار فأطلق قاطع الطريق صرخة مدوية ، وأطلق ساقيه للريح لا يلوى على شىء . وفزع رفيقه أيضا وجرى هاربا .

ـ ماذا فعلت لقاطع الطريق يا حمد ؟

ـ لقد ضربته بهذه .

ـ وأين وجدتها ؟

ـ لقد كانت معى فقد التقطتها ونحن نسير الى هنا :

***

انا نحفر الأرض ونبذر الحب ونلوذ لشباك النبى محمد .

# لا تستبدل بيوم سعيد يوما شؤما

**كـــان** الرجـل يطعن فى السـن ، وليس لديه شىء يتركه لابنه ، ولكن ذات يوم أشرقت فى ذهنه فكرة ، فنادى ابنه وقال :

« يابنى ، يبدو أننى سأفارق الدنيا عن قريب ، ولم يبق فى العمر بقيـــة » .

ـ حاشا لله يا أبى .

ـ ليكن ما يكون ! اننى سوف أقول لك ثلاثة مبادىء ، يمكن أن تهتدى بها فى مسيرة الحياة الطويلة .

ـ نعم يا أبى .

ـ أولا . اياك أن تنبذ أبدا يوما سعيدا ، اذا ما عرفته ـ فانه يعقبه يوم شؤم .

ـ ثم ؟

ـ اياك أن تخذل امرأ يثق بك .

ـ اننى منصت لك يا أبى .

ـ ثالثا اياك أن تدس أنفك فى شئون الآخرين ، ودع الأمور على علاتها ، الا اذا داست على أصابع قدميك .

« أنت على حق يا أبى » •

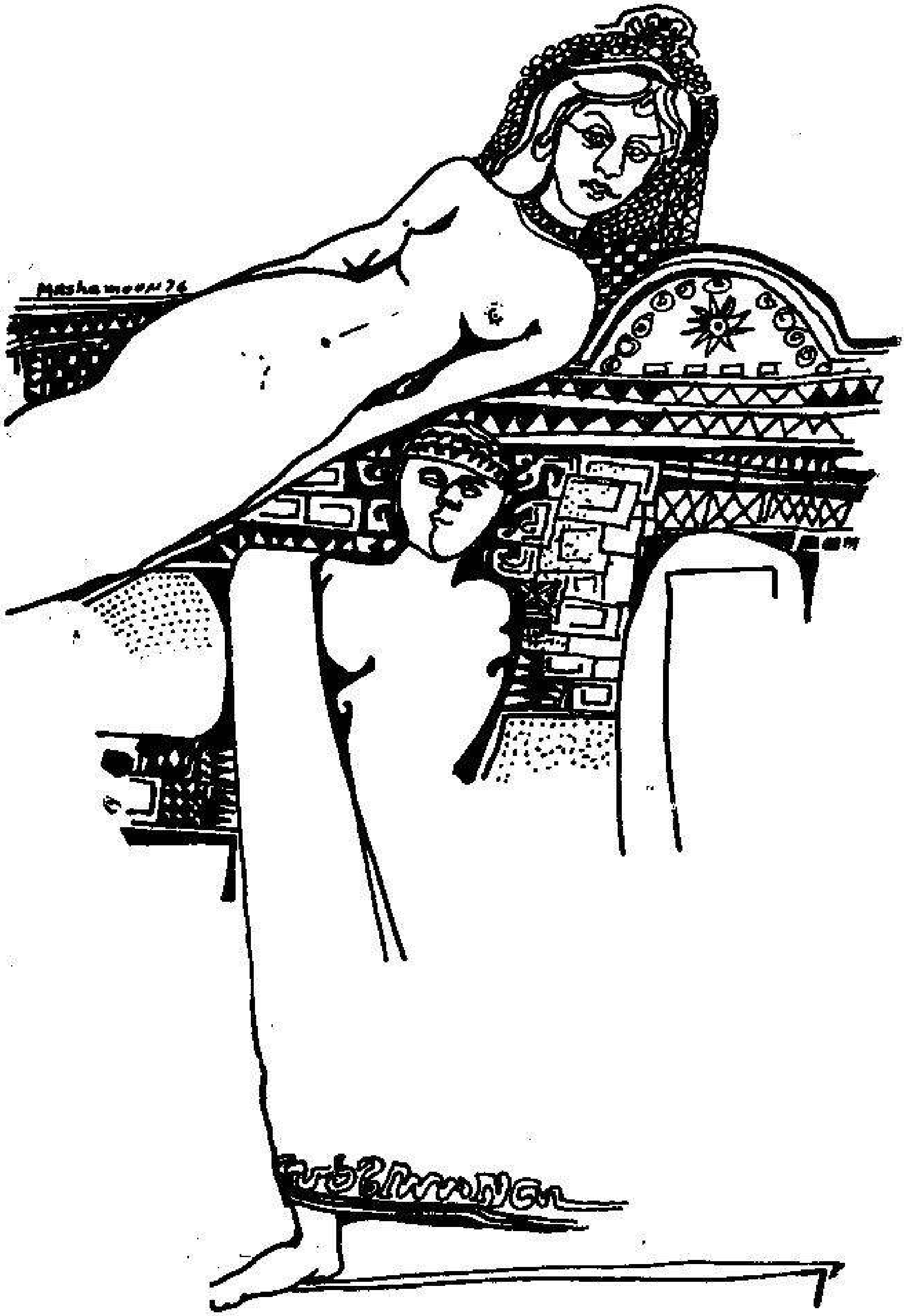
ولكن الرجل العجوز رحل عن العالم ، فارتبك الفتى • ولم يعرف ماذا يصنع نفسه ؟ فقد هدمت حياته من الأساس • فأخذ يضرب على غير هدى ، وسرعان ما أصبح مفلسا • ومع ذلك فان أسارير وجهة لم تتأثر بما يلاقيه من متاعب • وقد استخدمه فى الحال ملك وثق به ثقة لا يتطرق اليها الشك ، وأحبه حبا جما : وسر السلطان بمواهبه الفطرية • وأثر فيه الفتى باخلاصه وولائه • وأخذ بكلماته الهزيلة • وذات يوم استدعاه وقال له :

« اننا سوف نقوم بزيارة لملك صديق • واننا نعهد اليك بكل شىء فى البيت » • فابتهج الفتى وغمرته السعادة وقال : « سمعا وطاعة يا مولاى » •

وانطلق الملك فى رحلته ، ولكن هيا استمع معى • فها هى ذى قصة يوسف وامرأة فرعون تتكرر من جديد •

بسم الله الرحمن الرحيم •

دخلت زوجة السلطان غرفة الفتى فى جناح الخدم وهى ترتدى قميص نوم من الحرير ، تفوح منها العطور العربية وأخذت تخاطبه بصوت خافت ملىء بالاغراء • ولم يكن الفتى قريب المنال • اذ كان أبوه الراحل يحوم فوقه كملاك فى ثياب بيضاء وكانت أصداء وصيته الثانية تتردد حوله فى كل مكان ، •• « اياك أن تخيب أمل امرىء يثق بك » • ودار فى داخله صراع رهيب بين الرغبة العارمة وبين الوعد الذى قطعه على نفسه • لقد تعهد لوالده بأن يقف بجانب من وثقوا به ، ومع ذلك فان العاطفة الجياشة كانت تعتصره • كانت دماؤه تجرى حارة بين الفخذين ويراوده الاغراء ، ويدور صراع شديد فى داخله بين الشهوة وبين التعهد • وكانت السلطانة هناك ، يعتصرها



أيضا الهيام ، وأخذت تلاطفه وتربت على كل جزء فى جسده ، وتلهث •• وكان الوالد هناك ، فى ثياب بيضاء ، يردد الوصية الخاصة بالثقة والخيانة •• وتغلب كبرياء السلطانة على هيامها • وكان هناك لحن فى الهواء تصاعد حتى وصل الى درجة التصعيد ( الكريسندو ) ، وأخذ يصطرع مع صوت والد الفتى ، ويرن فى أذنى الفتى ويدير رأسه •

وذعر السلطان عندما رأى زوجته مشعثة الشعر ، وعيناها مخضلتان بالدموع ، وتغص بالبكاء وتخرج أنفاسها من أنفها بصوت مسموع • فأشار الى حاشيته وجوارى السلطانة بالخروج : وقالت السلطانة وهى تغص بالبكاء : « انه رجلك • انه حارسك ، الذى وثقت به ، وآواه ، انظر » ـ كان ثوبها ممزقا وعندما كشفت عن وجهها كانت شفتاها متورمتين • ولم يصبر السلطان حتى يسمع بقية القصة • واستدعى الفتى للمثول أمامه •

وقال للفتى : « يابنى العزيز ، هذا خطاب يتعلق بأمور الدولة • وأنت الوحيد موضع ثقتى ، وعليك أن تسلمه لملك شولين » •

فقفز الفتى على ظهر أسرع جواد وانطلق فى سبيله • كان الليل يرخى سدوله ولكنه قال لنفسه « هذا لا يهم فالجو منعش والسماء سوف تنيرها النجوم حالا » ويا أيها المستمع العزيز ان طرق الله عديدة • وبينما الفتى يسير ممتطيا صهوة جواده فى الليل صادف عرسا • كان هناك رقص وغناء وتصفيق • فتوقف ليسرى عن نفسه، على أن يستأنف رحلته فيما بعد ، ولكن سرعان ما تعرف عليه ابن السلطان الذى كان يستمتع بالحفل فى وسط الجمهور ، فقال له :

« يجب ألا تبقى هنا يا رجل ، اذ ينبغى أن تكون فى طريقك الى شولين » •

وأخذا يتحاوران هنيهة وقال ابن السلطان :

« حسنا ، اذا كنت تريد أن تلهو فدعنى أسلم الرسالة » .

ففعل الفتى ما قيل له ـ فأنت لا تجـادل كثيرا ابن ملك وفى شولين استقبل الأمير يقرع الطبول الخليق بأسرة ملكية ، وأعطى الأمير رسالة والده للملك خليف أبيه . فقرأها مرة ومرتين وألقى على وجهه نظرة قاسية وقال « أهذا أمر الملك » ؟

فقال الأمير فى ثقة :

« بلاشك يا مولاى » .

وبناء عليه صفق الملك بيديه بطريقة خاصـة . فظهر عند الباب عملاقان من العبيد منظرهمـا رهيب ، ويمسكان فى يديهما سـيفين مخيفين يرفعانهمـا عاليا . والتفت الملك نحو الأمير وأومأ برأسـه « نعم » . فانقض عليه الجلادان كأنهما نسران . واخترقت الصرخـة جدران القصر وسمعت وراءه من مسافة بعيدة . وحبس الملك أنفاسه فى سـكون الفجر الذى كان سائدا وقتذاك .. ان هـذا أمر غير مفهوم . أن يأمر الملك بقطع رأس ابنه .

واستمتع فتانا بكفايته من اللهو فى حفل العرس ، وقفل راجعـا الى البيت ، وهو مبتهج سعيد . ودهش عندما رأى الملك فى خيمـة ضخمة ، نصبت خارج الدار ، وفى ساعة مبكرة جدا من اليوم . وكان رعاياه يقدمون له العزاء . فترجل عن جواده ، واقتاده الى الحظير ، وسار رأسا الى محل اقامة الخدم ولكنه استدعى فى الحـال للمثول أمام الملك مولاه وولى نعمته .

« لم لا تسـأل عن المتوفى ؟ ألا يهمـك من مات من أسرتى » ؟

فلم يحر الفتى جوابـا وظـل ساكنـا . فأخبره الملك بقصـة الخطـاب .

ـ « اذن فقد كنت تقصد أن تقتلنى ، ولكن لمـاذا » ؟

ومضى الفتى يحدثه عن الوصايا الثلاث لأبيه •

وأدرك الملك أن زوجته قد روت له قصة مختلفة • وتمتم الفتى يحمد حسن طالعه اذ أنه لم يطرح ذلك اليوم السعيد الذى كان مقررا أن يقوم فيه بالمهمة ليستبدل به آخر •• لقد كتبت له النجاة بالذهاب عندما فعل ذلك • وران صمت تام ، فى القصر وفى الخيمة وفى كل مكان • وقطعه الملك • فقد أمر بالنفخ فى الأبواق وقرع الطبول ، فهرع الجميع الى حيث كان ، فوقف ، ورفع قطعة من الثرى وسأل بصوت جهورى :

ـ أيها الرجال والنساء والأطفال فى بلدى : ماذا سمعتم من أصوات صادرة من قصرى فى الليلة قبل الماضية ؟

فران صمت •

فقال الملك آمرا : « تكلموا » •

فاتخذ شاب طريقه وهو يتلوى مخترقا الحشد ، ومن مكان فى المقدمة قال :

كانت هناك أصوات عالية نابضة بالألم صادرة من قصرك ، يا مولاى •• صوت صبى ، يمزق السكون فى الداخل والخارج ويولول قائلا : « لا ، لن أخون من ائتمننى ، لا » !

فقال الملك : « وماذا يعنى ذلك » ؟

ـ « لا أعرف ، ولكن لابد أنه كان هناك صراع على شىء ما » •

وفى هدوء سار السلطان مبتعدا ويداه متشابكتان وراء ظهره ، ورأسه منحن فى قنوط ، وعيناه تحملقان فى الأرض ، وكان يشعر بالخزى والفزع ، وجسده ينتفض • وتفرق الجمع فى ذهول وهدوء •

وقال الفتى لنفسه : « لن أحتمل المزيد من هـذا ! حان الوقت لأن أذهب ، وبلاد الله كثيرة » وسافر مشيا على قدميه شهورا عديدة . وبعد أن أمضى الليل فى دار للضيافة بمدينة لم يعرفها ، استيقظ فى الصباح وهو مندهش كما لم يحدث لأحد قط من قبل . كان هنـاك حشد من البنائين يشيدون بيتا ضخما . وكانوا لا يستخدمون طوبا وملاطا ، كما يفعل البشر بل كانوا يستخدمون جماجم بشرية ومسحوقا من الدم بدلا من الأسمنت وبينما كان يرقب هـذا سمع قرع ناقوس تردد صـداه ، ورأى مئات الناس يدخلون الى قصر الملك . فانضم للجمهور . وتبين له أن هنـاك مآدبة . يقدم فيها جبل من الطعـام لأناس قاعدين القرفصـاء على الأرض . ولكن يا له من طعام . كانت تلقى رءوس كلاب وقطط مع كسرات صغيرة من خبز وأرز ولحم . وتمتم هامسا : « ملك آخر وبلد آخر ، احفظنا يا رباه » .

يا له من أمر بشع مخيف ! كان الملك كلما صفق يقطع الجلادون رءوس بعض الضيوف . ولم يفهم فتانا لمـاذا تقطع رءوس هؤلاء الرجال ، ولكنه رأى أن هـذه كانت المـادة التى يبنى بها البيت الذى رآينـاه يشيد . وعندما انتهت المـآدبة أمسك به من ذراعه أحـد رجال الملك وسأله . فقد كانت نظراته تنم عن أنه غريب .

ـ من أنت أيها الرجل الغريب ؟

فقال له انه عابر سبيل غريب . فسأله رجل الملك :

ولكن ألا يخامرك احساس بالدهشة ؟ اننا نلاحظ أنك لم تسأل عن نوع الطعام الذى قدم ؟

فقال الفتى : « ولكن كان هنـاك من الطعام ما يكفى لأن آكله ، وأنـا قانع تماما . خبز جيد وأرز جيد ولحم .. وأنـا لا يهمنى فتيلا الكلاب والقطط » .

وحار رجل الملك ، ولكن ماذا بقى هناك ليقال ؟

لقد فكر الفتى فى تلك الوصية الخاصة بألا يدس أنفه فى شئون الآخرين ، وقال لنفسه متسائلا :

ترى أين كنت أصبح الآن بدونها ؟ كانت رأسى تصبح طوبة فى قصر الملك ودمى يختزن ليتحول الى مسحوق بدل الأسمنت .

***

اننا نحفر الأرض ونبذر الحب ونلوذ بشباك النبى محمد .

# الخاتم الذى يحقق الأمانى

**كــان** لتاموش ثلاثة أبناء وثلاثة بيوت وكان يختزن ذهبه فى أحد هــذه البيوت ، ويكوم فضته فى آخر ، ويحتفظ بديكته فى الثالث • واستدعى أولاده الثلاثة لفراش مرضــه وقال لهم انه سوف يموت وقال : « أنت يا سليمان سيكون لك ما اختزنته من ذهب ، وأنت يا هيــكل ســيكون لك ما اختزنته من فضــة وأنت يا عمر ستكون لك الديكة » •

وخارت همة عمر • ومهما يكن من شيء فان كونه أصغر الأبناء لا يرجع الى خطــأ منه • انه مجرد واقعة ميــلاد • وقال لنفســه : « ماذا أفعل بالديكة ؟ » ومهما يكن من أمر فالدنه بعد بضعة أيــام تملكته الدهشــة ، وهــذا ما حدث : لقد أخــذ ديكا الى تاجر فى السوق ولم يستطع أن يصدق ما سمع • فقد عرض عليه ثلاثين جنيها •

ـــ هل تعنى ثلاثين جنيها أم ثلاثين قرشا ؟

ولم يفهم التاجر • كان عمر مترددا • فعرض عليه التاجر أربعين جنيها • وعدا عمر الى البيت فى فرح •

وقال التاجر لزوجته أن تطهو الديك دون أن تشق بطنه • وقال لها أن تشويه وتقدمه دون أن تشق بطنه ومهما يكن من أمر فان عمر

كان يجلس فى بيته متحيرا وخطرت له فكرة ، فقفز قائمـا وتسلل الى بيت التاجر ، واختبأ تحت شجرة فى حجرة المسافرين . وحالمـا رأى زوجة التاجر تحمل الديك المطهو قفز الى الأمام واختطفه ، وأطلق ساقيه للريح . فجرت وراءه وجرى التاجر ولكن عمر كان فتيا مرن الأعضـاء .

وجلس ليتناول وجبة شهية ، ولكن ما هـذا ؟ لقد كان هنـاك بين حقوق الديك خاتم ! ولم يكن خاتمـا عاديا ، كان عجيبـا فى نظر من يراه .

ولم يضيع وقتا . وانطلق ليرى الصـائغ وسأله ما اذا كان فى وسعه أن يصنع منه صورة يقدمها هدية لخطيبته . فقال الصـائغ : « سوف أحاول . اتركه هنا » . وعجبا ! لقد حك الصـائغ الخـاتم بقطعة من المخمل فنطق الخـاتم . وقال « خادمك المطيع يا مولاى . ما عليك الا أن تتمنى . تمن أى شىء فى العـالم فسوف يكون لك ما تتمنى » .

فقال الصائغ : « اننى أريد قصرا فى وسط النيل » فقال الخاتم : « خادمك المطيع يا مولاى . هيا بنا » .. وفى وسط النيل أقيم قصر لم يشهده أحد من قبل . وعاد عمر الى الصـائغ بعد بضعة أيـام . فوجد ان الصائغ قد رحل . وقيل له ان الرجل سعيد الحظ قد وجد خاتما يحقق الأمانى ، وأنه يعيش الآن فى وسط النيل . فانطلق عمر الى البيت وأخذ معه الى النهر كلبا وقطة وفأرا . وقال عمر للكلب : « هيا احمل القطة والفأر على ظهرك واعبر النهر ، وانطلق الى القصر وأحضر لى خاتمى . وعليك أن تستعيده لى فقد خدعت » . ودخلت القطة الى القصر وعادت لتعلن أن الصـائغ نائم والخـاتم فى فمـه فقال الفأر : « شكرا ، لقد قمت بمهمتك » .

فعجب الكلب والقطة وقالا : « ولكن ماذا تقول ؟ » فقال الكلب « جاء الآن دورنا ، أنـا والقطة » . وسئل : « ثم ماذا ؟ » فرد قائلا : « استمعوا الى . ان الأمر سهل . لسوف أدغدغ بذيلى فم الرجل . فيسقط الخـاتم . فيلتقطه الفأر ويهرب به » .

وهذا ما حدث . عطس الرجل . فسقط الخاتم فى حينه . واندفع الفأر خارجا . ولكن عجبا . ! فى وسط النهر بدأ الكلب يتذمر شاكيا . وقال انه هو الذى يتعين أن يعطى الخـاتم لسيده ألم يحملهما جميعا على ظهره المسكين ؟ فأعطته القطة الخاتم .

كان الكلب سعيدا .. فقد فاز . ومهما يكن من أمر فانه عندما اقترب من الشاطئ بدأ ينبح فاختفى الخاتم فى النهر . وجلس الثلاثة يولولون بجانب الضفة ربما تكون قد ابتلعته سمكة . وانه لأمر غريب ما أرويه لك يا عزيزى المستمع . لقد مر بائع سمك . فدنا منه عمر وقال له : « أعطنى تلك السمـكة ففى بطنهـا خـاتمى الذى يحقق الأمانى ؟ فأطلق بائع السمك ساقيه للريح . وعندما وصل الى البيت كان يلهث تعبا . وقال وهو لا يكاد يستطيع أن يتنفس :

أواه ، يا زوجتى ، اطبخى هـذه السمكة الآن توا واياك أن تعبثى بالأمعاء ، بل احفظيها فى حزمة . أتسمعين ؟ اياك أن تضيع منك الحزمة .

وانطلق عمر وحيواناته المدللة فى رحـلة طويلة ، وأخيرا وجدوا بيت بائع السـمك . وعرض الكلب أن تذهب أولا فحيوه جميعـا . وقالوا بصـوت واحد : « انك تعرف هـذا خيرا منا بطبيعة الحال » .

وعاد ليعلن أن الخـاتم فى حزمة تتدلى تحت ثوب المرأة • فقال الفأر : « لقد جاء دورى الآن » وتسلل زاحفـا تحت ثوب المرأة • ففزعت وطاش صوابها • وكانت القطة تقف عن كثب • فاختطفت الحزمة ، وانطلقت بها نحو عمر •

فقال عمر : « الحمد لله » وانطلق ومعه حيواناته المدللة •

***

انا نحفر الأرض ونبذر الحب ونلوذ بشباك النبى محمد •

# زينب ، السكر الأحمر

**كانت** زينب أجمل الفتيات فى سرة فى الأيام الخالية . وكان كل من يريد أن يزهو متفاخرا يباهى قائلا : « أنـا ، شقيق زينب ! ؟ ولم يكن بالمرء الذى يرهبـه أحـد . اذ كانت زينب لا تصـفح عن الجبناء . وكان كل من يصاب بأذى يباهى قائـلا : « أنـا شـقيق زينب ! » ولم يكن يترك الأمر يمر بدون حسـاب ، بل كان ينتقم لنفسه . وكانت زينب لا تشعر بالسعادة اذا لم يفعل . وكانت الفتيات الأخريات فى القرية يغرن من زينب . واتفقت الفتيات على أن يقمن بعمل شىء للنيل منها . وقلن لأنفسهن « يجب أن نزيحها عن الطريق » . ولكنهن لم يفصحن عن هذا وذات يوم ذهبن الى أم زينب وقلن لها : يا خالة حسنة . ان زينب لم تخرج معنا قط . اننا نعتزم أن نقطف بلحا هذا الصباح . ونرجوك أن تسمحى لها بالمجىء معنا » . فأحضرت لهن الأم كوما من سعف النخيل ، وقالت لهن : « أترين يا فتياتى عليكن أن تذهبن وتجدلن هـذا السعف وتحضرن لى أكبر عدد ممكن من أقفاص الكرج » .

وبعد بضعة أيام عادت الفتيات ومعهن قدر وفير من ثمار الكرج اللامعة المتعددة الألوان . ولم يعد يخامرهن الشك فى أن زينب سوف يسمح لها الآن بأن تنضم اليهن فقد قمن بعمل رائع للغاية فى مجـال

الجدل • ولكن كلا • لقد أنبت الأم على مهارتهن وقالت : « انني سوف ألقى فى مهب الريح زكيبة من حبوب السمسم • واذا كنتن حقا صادقات فى أن تأخذن معكن زينب فانكن تضعن كل حبة سمسم ثانية فى الزكيبة • هل سمعتن ما قلت ؟ كل حبة سمسم » • ففغرت الفتيات أفواههن من فرط الدهشة وتطلعت كل واحدة منهن للأخرى ، وتنهدن ، ولم يستطعن الا أن يومئن برءوسهن علامة على الموافقة • وانقصمت ظهورهن من جمع الحبوب ، بل انهن ذبحن دجاجة كانت مارة بهن ، والتقطت واحدة ، واستخرجوها من معدتها ، وفزن بجائزتهن أيضا ، فقد تقرر أن تذهب معهن زينب فى اليوم التالى • وجرت الفتيات عبر الحقول وأخذن يسقسقن ، وهن سعيدات مثل طيور القبرة • وصفقن بأيديهن جذلا ورقصن وغنين ، وشرعن فى العمل ، أى جمع البلح فى السلال وقالت احداهن : « لقد تسلقنا جميعا أشجار النخيل • يا زينب !

وقالت أخرى : « ينبغى أن تحاولى أن تصعدى الى أعلى مرة » •

فتطلعت زينب الى أعلى • كانت النخلة شاهقة ، فقالت لهن فى ابتهال انها لا تستطيع أن تفعل هنا • فأصررن ، فأذعنت لهن • وتسلقت الشجرة وقطفت البلح ، وألقت به لصديقاتها من أعلى لكى يجمعنه : ونزلت من النخلة الشاهقة وهى منهوكة القوى وقد أضناها التعب • وكانت سلتها الخاصة مليئة ببلح ، طعمه لا يستساغ ، وكله جاف ذابل مغطى بنسيج العنكبوت والغبار • وأبت زينب هذا الضيم ، فهى تكدح وتشقى وهن يحصلن على أفضل الثمار دون أن يفعلن شيئا سوى أن يرقبنها • وتسلقت النخلة مرة أخرى وجمعت لنفسها بلحا أفضل • وكانت أقل تعاسة ولكن غريماتها لم تكن سعيدات كما كن من قبل •



وفى طريق العودة قالت احدى الفتيات انها ظمـأى وفى حاجة الى شربة ماء من بئر • ولم تستطع زينب أن تصـدق هـذا ، لأنهن قد سرن توا مسافة من ضفة النهر • وقالت لهن ما تعتقد ولكنهن حثثنها على أن تحضر المـاء •

فنزلت فاطمة الى قاع البئر وملأت قربة المـاء وهزت الحبل المتدلى لتجذبها الفتيات الى أعلى حسب الاتفاق • ففعلن ذلك فى الوقت المناسب ، ولكن فى تلك المرة كان الأمر بالنسبة لزينب عذابا ورعبـا • فقد كانت البئر حالكة الظـلام تبعث الرعب فى القلوب • وكانت تئز بأصداء الأصوات •

وكانت الفتيات خبيثات • فسلكن طريقا ملتوية لا يطرقها أحد وهن عائدات الى البيت ، ووصلن الى ربوة عرقبى • ولم يكن هناك أى طريق يسلكنه ليتحاشين المرور بها • وقلن : « الويل لمن لا تلقى بذهبها ! » ففعلت زينب هـذا لأنها كانت تتلهف الى أن تنصرف • ولكن عجبـا ! ان الأخريات لم يفعلن هـذا ، بل أطلقن سيقانهن للريح • انها لن تفعل هذا • وشرعت تلتقط حليها ، وفجـأة لفتهـا زوبعة سوداء ، وزمجر العرقبى • وكانت هنـاك ضجة فى كل مكان حولها • ضجة تصم الآذان • وتكلمت العاصفة ، لكى تجعل الأمر أشد رهبة ، وقال الغول بصـوت واضح متميز عميق : « لا تعبأى بى يا فتاتى • فهنـاك ما هو أسـوأ ، وسوف تلاقين ما هو أسـوأ بكثير » • ولم يكن هذا كذبا أيضا ، فقد زمجرت ريح هوجاء أشد سوادا وكثافة • وكانت فى هـذه المرة هى العربة الحربية لعرقبى • وألقى نظرة سريعة على زينب وعوى قائلا : « أية ريح سيئة تجىء بك الى مملكتى • ان دمك بأسره ليس الا لقمـة واحدة ، وكذلك لحم جسدك كله » •

« سدى أذنى بالطين واحجزى عنى العالم ثم أحضرى لى سقاء ماء • ودعينى أنال شربة بعد ذلك ، ودعى العالم يدخـل ، وافتحى أذنى » • ففعلت زينب كما قيل لها ، وكانت ترتجف كقصبة فى مهب الريح • وسار وهو يعرج وأومأ لها بأن تتبعه •• وارتقى جانب الجبل وأخذ يلهث وتبعته وطوى نفسه مثل كرة ضخمة وولج كهفه • ونظر الى الوراء • كانت هنـاك على ما يرام • وفى داخل الكهف كان رقيقا بقدر ما يمكن أن يكون • وقال : « أتريدين شيئا من لحم الضأن » ؟ وفى الحـال أحضر منه مخلوق من نوع أذنى ملء طبق •

ـ « أتريدين شيئا من لحم البقر » ؟ وفى الحـال كان هنـاك ملء طبق منه ، ثم :

« أتريدين شيئا من كبد انسان » ؟

كانت مريضة ، وخائفة ، وحائرة •

وكانت القرية فى حداد لغياب زينب السكر الأحمر • وكان كل رجل وامرأة وطفل ينام على الأرض ، كما يفعل الناس فى المناسـبات الحزينـة •• ولم تجد القريـة عزاء فى أن الفتيات اللاتى فقدنها قد حبسن • وكانت العصافير لا تسقسق وأوراق الأشجار تذبل ، وأبت الدواب أن تأكل ودواليب المـاء أن تدور • وحل عرقبى شعر زينب ، وكان طويلا ومزغبا وناعما ، يصـلح حشية • وتمدد بجسده فوقه ، وسرعان ما بدأ يغط فى نومه • وكانت جدران الكهف ترتفع وتنخفض فى ايقاع مع شخير الوحش المريع • ولكن عجبا ! بينما كان العرقبى يغط فى نوم عميق ، وزينب يائسـة محزونة فى أسرها ، وفى تمـام اليقظة ، حدث شيء غريب • اذ رأت زينب من خلال أشعة الضـوء المرتجة على الجدار ، ظل قطيع من المـاشية • وعرفت أن بعضها من ماشية أبيها •واستبعدت زينب الفكرة على أنهـا من قبيل الخيال • ولكن لا ، لقد كان هناك عبد أبيها ، الراعى مرسال ، ومعه عصـاه

الطويلة خلف عنقه ، وذراعاه يتدليان الى جانبيه • أجل ، كان هـذا هو مرسال الروح الرقيقة • فأطلقت حنجرتها لا اراديا بالغناء وهى على يقين من أن العرقبى ينام عاما كاملا عندما يذهب للنوم :

ديل أبو ديله

هليل بجر أبو زينب ••

ولم يستطيع مرسال أن يصدق أذنيه ولم يستطع أن يكذبهما • كانت الأغنية مألوفة • الكلمات اللامعقولة والمنظومة جيدا ولا تعنى شيئا • فردد يقول لنفسه :

ديل أبو ديله

هليل بجر أبو زينب ••

وعندما عاد للبيت قال لقومه انه يعتقد أنه سـمع مولاته تترنم بأغنية هناك فوق الربوة •• وقال انه ليس على يقين ولا يجب أن يروى مجرد قصـة • لقد سمع صـوت مولاته على ربوة العرقبى • ولم تستطع مولاته الكبرى أن تنتظر • وقالت له : « تعـال يا مرسـال وهيا بنا نذهب » ، ولكن اذا لم تكن هى مولاتك الصغرى فسوف تقطع رأسـك •

فاحتج مرسال ولكن حسنة كانت قد امتطت جوادها ، وانطلقت • وحمل رماحه ، وأقواسـه وسهامه ، وتبعها سائرا على قدميه •• كان ذلك هو أسلوب العبيد والسادة • وجاهدا صعدا الجبل الى الكهف ، وهنـاك كانت زينب مع العرقبى وهو يغط فى نومـه على شـعرها الأبنوسى • فاحتز مرسال شعر زينب من مؤخر عنقها وانصرفوا • لم تكن هناك حاجة الى الجرى ، فعلى العرقبى أن ينام عاما •• كانوا فى أمـان •



كانت أشعة الشمس فى الكهف ترقب زينب وهى تذهب فى حزن يعتصر قلبها . وغنت معا .

أواه يا عرقبى يا من تنام

لقد مضت الفتـاة

ومضت برعمة المكان

وصلصلت الصخور فى الكهف ، وسقطت على رأس العرقبى ، ومع كل صخرة تنزل كانت السحب فى السماء تتكاثف ، والرياح حول الجبل تهب أسرع وأسرع ، وهطل المطر مدرارا .

ووصلت زينب الى البيت سالمـة ، فابتهج كل من كانوا يحبونها، افتقدوها .. وسقسقت العصافير مرة أخرى ، وتحركت أوراق الشجر وهب نسيم منعش ، وترددت أصـداء زغاريد النساء وراء التلال . وأخذ الأطفال يهللون للمطر ، ويصفقون بأيديهم ويحجلون وهم يهتفون مبتهلين « كوباى ، كوباى : جرادل جرادل » .

ومع ذلك فان هـذه ليست نهاية القصة . فقد استمرت المحن التى تتعرض لها ، وهذا ما حدث أيها المستمع الكريم .

استيقظ العرقبى قبل أن يمر عليه عام : ولم تضايقه الصخور التى تساقطت على رأسـه والسماء المعتمة فوقه .. وكاد يتميز غيظا لأن زينب لم تكن هناك . وأخذ يتشمم المكان ولكن زينب لم تكن هناك . وأخذ يتشمم فصدمت أنفه الكبير رائحة زينب الحـلوة . كان العطر الذى خلفته وراءها لايزال هناك ، يعبق فى الجو . فسار سريعا وهو يعرج واندفع الى بيتها . وأنت تعرف كيف يمكن لعرقبى أن يسير بسرعة عندما يشاء ، سريعا جدا : وصرخ قائـلا : « أعطونى حبيبتى أعيدوا الى الحبيبة التى أهواها » . واهتزت التـلال حول القرية ، وفزع النهر الذى يجرى تحتها وجمد ماؤه : وتوقف عن التدفق ، وبدأ



يرهف أذنيه • ومزقه أشقاء زينب اربا بسيوفهم • وكان مستلقيا هناك وهو مقطع اربا ، وشعروا جميعا بأنهم آمنون • واستأنفوا الحيـاة • كان كل شيء على ما يرام ولكن عجبا !

فذات يوم كانت زينب تكنس البيت ، فسقطت من السقف خرزة دخلت فى فمها والى حلقها واستقرت فى معدتها • كانت تلك هى أيـام الفقهاء ، أيام الشيوخ الذين يعالجون الجروح ويكتبون تمـائم لمن بهم مس من الجن • واستدعى الفقيه فى الحـال ، فألقى عليها نظرة • وتمتم بكلمـات لم يستطع أحد أن يفهمها ، كما اعتاد الفقهاء أن يفعلوا وقـال آمرا : « اذبحوا كبشـين وصبيين من أشقاء زينب • وعندما تعدونهم للشى على النار ، خذوا زينب الى هناك ، واحملوها ، رغم أنها سوف تبدى نفورا ، بأن تنفخ النار تحت اللحم • وباذن الله سوف يدفع النفخ الخرزة الى تجويف حلقها ثم يدفعها الى أعلا وأعلا وأخيرا الى طرف لسانهـا ، وأرجوكم أن تنتبهوا ، فحالمـا تكون هنـاك ، التقطوها بعيدا • اذ أن زينب سوف تكون مصابة بالدوار ولا تستطيع أن تتفلها • وفعلوا هـذا ، واستجاب الله بكرمه الى الدعوات التى تمتم بها الفقهاء • وخرجت الخرزة • الله أكبر ! ولكن عجبا ! مـاذا عنا نحن هنا على الأرض ؟ هل ننصره ؟ انظروا الى ما حدث •• لن يأكل أحد اللحم ، لقد تخلصوا منه بالقائه وراء البيوت ، القريبـة من التلال • وكان لحم وعظـام الكبشين يئن ويوجع لكى يلتئم مرة أخرى ، وفعل هـذا • حسنا ، انك عندما تريد شيئا بصـورة ملحة فانه يحدث باذن الله •

وذات يوم بعد الحادث بوقت طويل كان هناك كبشان يتسكعان فى القرية قرب بيت زينب • واستلقيا بجوار الأبواب وكانت تبدو عليهما أعراض المرض • واقتادها مرسال الى الداخل ، وها هما ذا هناك داخل بيت سادته ، والدى زينب ، بالقرون وكل شيء ، ولكنهما كانا مسالمين

لا يؤذيان • ومهما يكن من أمر فانه كلما كانت زينب تدخل أو تخرج كانا يندفعان اليها ويضربان يدها • وعندما أخبرت زينب أفراد أسرتها بما يحدث من الكبشين قهقهوا ضاحكين • يا للعجب ، لماذا يختاران شخصا واحدا بالذات فى البيت ؟ كانوا يحبون زينب ولكن ليس الى المدى الذى يصدقون فيه ما تقول دون مناقشة • وأبى والداها أن يستسلما لأوهامها ! ان هذا كله كلام ، يا مستمعى الكريم •• ومهما يكن من أمر فان هناك هوة بين المنطق والحقيقة ، أحيانا • فالوالدان لن يصدقا زينب والكبشان لن يدعا زينب فى سلام •

واختبأت الأسرة وراء الأبواب والجدران وشاهدوا بأنفسهم • لقد كانت على حق ، اذ كان الكبشان يطعنان يدها بقرونهما والمواضع الناعمة فى جسدها الرخص والفخذين والحقوين والاليتين • وكانت زينب تتألم حقا ، ولم يكن هناك شىء تعمله سوى أن تذبح ما يقومان بتعذيبها •• فذبحا مرة أخرى ، ولكن أحدا لم يأكل اللحم ، ومرة أخرى ألقى باللحم • ولكن حدث شىء غريب نرويه ، اذ نشر اللحم نفسه وغدا أخضر ، شديد الخضرة • وامتلأ المكان ببطيخ •

كانت البذور داخله كبيرة فى حجم الحصى ، وكانت تضرب جدران البطيخة بشدة تكفى لأن تنفجر وتتطاير فى وجه زينب ! زينب وحدها على أية حال • وخلافا لذلك كان البطيخ وديعا • كان لا يضرب أى شخص سوى زينب ، تماما كما كان الكبشان يفعلان •

وأبلغت زينب ذلك لوالديها • ولكنهما كانا قد بلغا أقصى درجة من الصبر والاحتمال • فقالت أمها : « أرجوك يا زينب الا يمكن أن

تنعم بشىء من الهدوء ؟ فأولا كان العرقبى ، ثم الكبشـان والآن بذور البطيخ . ارحمى أباك وارحمينى » .

ولكن أباهـا كان يحبهـا : وأحـرق كل الزروع فى البيت وفيما حوله ، وعندما دنت منه سيدة عجوز كانت مارة به ، وتريد بعض الفحم النبـاتى ، حذرها من ذلك ، الا أن السـيدة العجوز أبت أن تصدق كلمـة واحدة مما قال وأخـذت كل ما كانت تريده من الفحم النباتى . وهرعت الى البيت ، وهى مبتهجـة ، لأنهـا حصـلت على ما يكفيها من الوقود لطهو طعامها ولكن عجبا ! يا للمرأة المسكينة ! لقد أخذ الطاجن على النار يتأرجح فى هـذه الجهة وتلك الجهـة ، وطار فى الهواء وهو يضرب هـذا الجدار وذاك الجدار للتوكول ، تنج ، تنج ... وذهب .

ومسحت السيدة العجوز بالفرشاة كل جزء من الفحم النبـاتى فى غرفة الضيافة ، ولكن فى ساعة مبكرة من الصباح ، وبينما هى تنزل الى النهر لجلب مـاء فى جرتها للبيت : رأت شجرة خارج بيتهـا ، وكانت فارعة خضراء شديدة الصلابة . ولكن ساورها القلق اذ لم يكن هنـاك ما يمكنهـا أن تفعـله ، فنزلت وعـادت بجرة المـاء ، متوازنة فوق رأسها . كانت الشجرد هنـاك تماما ولكن لم يكن فيها شىء غريب .

وفى ساعة مبكرة من صبـاح يوم آخر كانت هنـاك ضجة فى الخارج . واندفعت الأم الى الخارج وكذلك فعل زوجها . كان أولادها متدلين من أغصـان الشجرة ، وزالت الشـجرة ، وكانت فى وسـط الطريق بين الأرض والسـماء . وطـارت الشجرة الى أعلى وذهب الأولاد .

ويقولون ان الشجرة استقرت على قمـة التل الذى يعيش فيه العرقبى ماذا حدث يا ربى ؟ هل الأطفال هناك كرهائن الى أن يستعيد العرقبى زينب ؟ هل قام العرقبى بلم شمل جسـده المحطم ؟ ان المرء ليتسـاءل . فالعرقبيون لا تحـكمهم نفس القوانين التى تسرى على البشر ؟ فقد استن الله قوانين أخرى لهم .

فما هى ؟ من يعرف ؟

***

انتا نحفر الأرض ونبذر الحب ونلوذ بشباك النبى محمد .

# ترتر على بك

كـان ترتر على بك رجلا عجوزا فقيرا . وكانت لديه دجاجة تبيض له كل يوم بيضة يأكلها : وكان قانعا راضيا تماما . وكان كوخه على حافة القرية متواضعا ولكنه مريح . وذات يوم زاره ابن آوى . وتبادلا التحيات وقال ابن آوى لترتر على بك : « أعطنى هذه الدجاجة » .

فقال : « ولكن ما عسى أن يكون لدى سواها فى العالم » ؟

وبدا على ابن آوى أن هذا قد أثر فيه ومس شغاف قلبه : فانصرف وانحنى محييا خارج الكوخ .. وأخذ يفكر ويجهد نفسه فى التفكير وقال لنفسه : « آه ، اننى أعرف » .

وانطلق لزيارة رجل ثرى وقال له ان السلطان يريد ربعا من الذهب الذى يكتنزه . ففعل الرجل الثرى ما اعتقد أن السلطان يريد منه أن يفعله وبينما هو منهمك فى وزن ذهبه كان ابن آوى يسرق قطعا صغيرة منه ، من الزكيبة المهلهلة التى كان الرجل الثرى يحتفظ فيها بثروته .

وانطلق ابن آوى سعيدا ، ولكنه عاد فى المساء ومعه قطع الذهب الصغيرة التى كان قد أخذها . وقال للرجل ان السلطان راض عنه ،

ومن ثم فانه قد أرسل اليه ثانية بعض الذهب وكان السلطان يريد الآن ربعا من الفضة التى يكتنزها الرجل وأثار زهو الرجل المسكين أن يحبه السلطان ، أواه ، لقد أحضر موازينه وبدأ يزن ، فى الوقت الذى كان فيه ابن آوى العجوز الشرير يدفع فى جيبه قطعا من الفضـة •
وانصرف ابن آوى ، وعـاد فى صباح اليوم التالى بقصة مروعة وقال : « لقد زاد حب السـلطان لك ، ومن ثم فانه يعرض عليك يد ابنته » ما أسعد حظ الرجل بأن يكون صهرا للسلطان ! عجبا ! ان الرجل لم يستطع أن يتمالك نفسه وهمس وهو يـكاد يـكون غائب الوعى : « هذا يسرنى بطبيعة الحال » •

وانطلق ابن آوى يمشى على الرمال ، على حافة القرية ، وعرض الشىء نفسه ، يد بنت السلطان ، على ترتر على بك •

وقال ابن آوى محتجا : « ماذا تقصد ، وكيف » ؟

فقال الرجل : « أقصد أن أقول اننى لا أملك شروى نقير » •

فقال ابن آوى آمرا : « صه ، وتعال معى » •

وكان ترتر على بك لا يقوى على الجدل مع خصم لدود ، ومن ثم فانه سار وراء ابن آوى وهو يحتضن كل ما لديه من حطام الدنيا •

وكان السلطان يعيش فى قصر عبر النهر • فجمع ابن آوى بضع قطع من الخشب ربطها معا ، وانطلقا الى النهر • وقرب الضفة الأخرى أغرق الرمث وقـال للرجل العجوز انه سوف يسبح الى الضفة وعليه جلبابه ، ويمسك الدجاجة باحكام •

كان مشهدا تمثيليا حقا ؟ فها هو ابن آوى والدجاجة فى يده ، والرجل العجوز مجرد من ملابسه تماما ، منحنيا لكى يستر ما يستطيع

أن يستره من جسده • وتمزق سكون الليل لأن ابن آوى صاح بأعلى صوته قائلا : يا أهالي الجزيرة ! لقد غرقت سفينة السلطان ! يا أهالي الجزيرة لقد غرق رجال السلطان • وثروته ملقاة في العمق تحت المـاء • هيا أيها المواطنون الصالحون ، وأحضروا حريرا ، كل ما لديكم من حرير ودمقس » •

فهرع المواطنون الطيبون الى ضفة النهر • وكان ترتر على بك الآن مشتملا بالحرير والدمقس ، ولكن كيف يمكنه ، وهو سـلطان البلد ، أن يوسخ قدميه بالسير على أرض عارية •• فأحضرت سجاجيد حمراء ، وسار عليها ترتر على بك ، السلطان ، حتى بيت هو أعظم البيوت أناقة ، وأخلد للراحة متكئا على أرائك بأسرها • وهمس ابن آوى في أذن رئيس الجزيرة « ان السلطان يأكل على مدى سبعة أيام متعاقبة كبشا عمره سبع سنوات كل يوم • كل هـذا وحده واستمع الى ، انه يجب ألا يزعجه أحد ، لأنه لا يتفكر متأملا الا عندما يأكل » • وفي صوت ينم عن الخضوع واصل كلامه قائلا : « وهو أيضا لا يمس امرأة ، فهو يركز على أفكاره » • واستمر يقول : « وفضلا عن ذلك ، فان السلطان اعتاد أن يختبر عضـلاته كل يوم برفع صخرة كبيرة فوق رأسـه • والصخرة يجب أن تكون كبـيرة كل يوم » • فأوما رئيس الجزيرة برأسه موافقا •

وذات يوم كان ترتر على بك يغفو مقيلا على أريكته الدمقسية عندما فتح ابن آوى الباب خلسة • وأبلغه بما سـوف يحدث وأنهى كلامه بأن قهقه ضاحكا وقال : « لسوف ترى • وسوف تملأ تجويف المعدة وتستطيع أن ترفع كل يوم صخرة أكبر حجما » فقال ترتر على بك انه سوف يحـاول • فقال ابن آوى « جرب ، وأقسم بقدمى انك سوف تفعل هـذا » • فتطلع ترتر على بك بشدة الى قدمى ابن آوى •

ومضت الأيام السبعة ، وأصبح ترتر على بك ، السلطان فى قوة الثور وما ان أيقن ابن آوى من ذلك حتى انطلق الى الجزيرة وقال : « والآن فان السلطان على أهبة الرحيل • ولكنه يرى لزاما عليه أن يتزوج من امرأة من أقربائكم اعترافا منه بكريم ضيافتكم » • وتم هذا •• وركب السلطان ترتر على بك وزوجته سفينة مليئة بالهدايا من كل نوع ، رياش وأثاث ، وأطباق ، وزكائب من الحنطة وما تشتهيه النفس • وعندما وضع كل شيء ، تفقد السلطان ابن آوى • لم يكن فى السفينة • وقال ابن آوى : « أوه ، كلا يا مولاى • أنى لمسكين مثلى أن يسافر على نفس السفينة مع السلطان والسلطانة • ان هذا لا يحدث ، ولم يحدث قط من قبل » • وأبى أن يتحرك • وسار على طول الضفة ، وأخذ يرقب السفينة ، تحملها بعيدا الريح التى كانت تهب من الصحراء والجزيرة •

وقال ابن آوى لبعض الأطفال الذين كانوا يرعون أغنامهم بجوار النهر : « أيها الحمقى ! ان عظمة السلطان وزوجته السلطانة على تلك السفينة • وهو لا ينوى أن يكون رحيما بأى شخص • فهو يتميز حنقا وغضبا » •• فأطلق الأطفال سيقانهم للريح واختفوا ، وجمع ابن آوى الأغنام واستاقها أمامه • لقد جرد منها ملاكها ولكنهم كانوا يشعرون بالامتنان له لأنه حذرهم فى الوقت المناسب لينجو أطفالهم بحياتهم • وعلى طول الطريق كان يلتقى برعاة ماشية وجمال وجياد ، فأفزعهم جميعا • وكانوا جميعا سعداء بأن يمضوا آمنين سالمين ، وكان بدوره سعيدا بأن يرعى كل الحيوانات •

وكان ابن آوى سعيد الحظ • ففى الطريق رأى دارين كبيرتين للضيافة ودخل واحدة منهما • كانت هناك امرأتان تجلسان وتحيكان • فرسم على أسارير وجهه ما ينم عن الحزن بقدر ما استطاع وقال بصوت ينبض بالجدية والخطورة « أيتها السيدتان الطيبتان • ان

السلطان على ذلك القارب ، ونظرا لأن شيئا فى باطنه يؤلمه فانه يقتل أى شخص تقع عليه عيناه . وأنا أنصحكما بأن تتظاهرا بأنكما جاريتان ترعيان هذه الحيوانات » . ولم يكن فى وسعهما الا أن تذعنا وتم رعى الحيوانات فى دار الضيافة . وخلعت المرأتان ثيابهما وارتدتا ملابس رعاة ، وأظهرتا صلاحية للعمل ووداعة .

وكانت السفينة قرب المكان الذى كان فيه ابن آوى تماما ، وانتظر . وما ان كانت على بعد بضع أقدام من الموضع الذى كان يقف فيه حتى سبح اليها ، وخاطب السلطان ، الذى لم يكن بطبيعة الحال ، سوى رجلنا الطيب ترتر على بك ، بقوله « اننى أحد رعاياك يا عظمة السلطان . وان قلبى لينسحق حزنا اذا مررت ، ولم تقبل ضيافتى المتواضعة ، التى أستطيع أن أقدمها لكم ولعظمة السلطانة فى دار ضيافتى المتواضعة هناك » . وسرعان ما كان ترتر على بك ، وزوجته ، ورجاله فى دار الضيافة ، تخدمهم امرأتان .

وراق للسلطان المكان ، وقرر أن يمكث هناك بضعة أيام . ومهما يكن من أمر فانه فى ساعة مبكرة من الصباح نزل الى النهر لكى يتوضأ . وبجانب النهر فى رمال الضفة الباردة كان ابن آوى مستلقيا ، ويبدو عليه أنه يعانى من مرض شديد ، ووجهه مشحوب ، وعيناه نصف مغمضتين وساقاه تترنحان . فلمسه السلطان بقدمه . فوقف ابن آوى شرسا حانقا على رجليه الخلفيتين وصرخ بصوت أجش وان كان ضعيفا : « يا ترتر على بك ، يا ترتر على بك . هل تسمعنى ؟ اننى أحتضر ، فأنا مريض وطاعن فى السن . اما أن تعدنى بلحد لائق ، وكفن من الحرير ، وكل ما يلزم ، والا يا عظمة السلطان فاننى أستطيع أن أستجمع قواى ، وأعيدك الى كوخك ودجاجتك على حافة القرية » .
فاعتذر ترتر على بك ، وأسرف فى الاعتذار وألقى خطبة بليغة لم يساور أحد الشك فى أنه كان قادرا على القائها .

وعندما انتهى من خطبته كان ابن آوى قــد مات ، ولكن ترتو على بك كان عند وعده . فأقام له جنازة خليقة بأمير وأمر بأن يدفن فى مقبرة الملك الخاصة .

❋❋❋

اننا نحفر الأرض ونبذر الحب ونلوذ بشباك النبى محمد .

# الف لذكائى وألف لمهرى

سمت ربة وزوجها شاهين أول طفلة لهما وردة . وعندما شبت عن الطوق لم تكن نجمة صباح بالضبط ، كانت قطة غليظة كما يمكن أن تكون . ومرت السنون ، وولد أطفال آخرون بعضهم جميل وبعضهم وسيم وبعضهم بين – بين . وازدادت غلظة وردة ، وازداد علمها بذلك أيضا .

وكان لوردة جناحها الخاص فى دار الضيافة ، شأنها فى هذا شأن أى طفل لربة وشاهين . وكانت الوحيدة التى توجد على بابها لافتة . وكان مكتوبا فيها : « ألف لذكائى وألف لمهرى » . وأثار هذا فضول زوار وأشقاء وشقيقات وردة ، وأبت أن تفسر هذه العبارة . وكانت تلازم الصمت عندما تسأل عنها . وزالت الاثارة ، وعلا الصدأ الاعلان الكبير فى الخارج ومحيت منها الكتابة فيما بعد .

وذات يوم أقبل رجلان من بلد بعيد على ظهر جملين . وأناخا جمليهما تحت شجرة وتمددا بظهريهما المنهوكين على الرمل الناعم البارد ليستريحا . وبعد ساعة أو نحو ذلك وضعا السرجين على جمليهما ، وبعد أن أصابا شربة أخيرة من جرة الماء تحت الشجرة ، قام أكثر الرجلين فضولا بجولة فى بيت شاهين . كان الباب مواربا . ورأى اللافتة على جناح وردة فى دار الضيافة .

وقال الرجل الآخر عندما أخبره الرفيق الفضولى عن الاعـلان « سوف أجربها • لابد ان اللافتة هناك منذ سنوات عديدة » •

ـ « ثم مـاذا » ؟

ـ لو كانت تستحق •••

فقال فى حزم وتصميم : « اننى أعرف ما تقصد ، ولكننى سوف أتزوج من هذه الفتاة » •

وقفز هذا الرجل المصمم من على ظهر جمله وطرق الباب • وكان الآن مغلقا ، ولم يكن مواربا • فردت خادمة لم تفتح الباب ، بل سألت من ورائه عمن هناك • فأوضح لها الرجل من يكون فاختفت الخادمة هنيهة دون أن تقول شيئا • وبرزت بعد فترة طويلة وقالت : « ان سيدتى تستفسر عما اذا كان الخاطب ، فلابد أنه خاطب ، يقبل شروط الزواج المبينة على اللوحة » • فقال الشيطان الجرىء انه يقبل ، ففتح الباب • وظهر عبدان على كل جانب من الباب •

كان شاهين سعيدا ، ولم تصـدق رية أن هناك رجالا من هـذا النوع فى العالم • وأقيمت حفلات الزواج • واقترنت وردة والشيطان الجرىء بعد الاحتفالات • فكانت خيبة أمل زوجها ظاهرة تقريبـا للعيان : اذ استطال وجهه وخفت صـوته • وفكر فى ذكائها وقـال لنفسه : « آه ، حسنا ، ان فى ذلك ما يعوضنى • فلابد أن ذكاءها من نوع فائق » •

وقالت العروس للعريس ، الذى لم يكد ينبس بكلمـة خـلال السنتين اللتين اجتمعا فيها معا :

« ألم تسأم من أكل خضروات مسلوقة وبصل كل يوم » ؟

« بلى » •

ـ حسنا اذا لم يكن لديك جواب فأنا لدى •

ـ ايـه ؟

ـ هيا بنا نتذوق لحما آدميا •

ايـه ؟

ـ أعط الخادمة مدية حادة ودعها تذبح ابننا •

وانطلقت الى المطبخ • وكان الرجل الساخط يتميز غيظـا ويرتعد هلعا • وقـال :

ـ ألا يهمك طفلك ؟

ـ ولكنك أنت الأب •

ـ ومن ثم ؟

ـ ان ما تقوله يسير •

❋❋❋

انا نحفر الأرض ونبذر الحب ونلوذ بشباك النبى محمد •

# وجه قمرى ووجه شمسى

**قـال** السـلطان حكيم من اشكيت لابنه طاهر : « أنت الآن رجل كبير يا طاهر • فأحضر لنفسك جوادا من المرعى المسور ، وطمره بالطريقة التى تريدها » •

ـ حسنا يا أبى ، سأفعل •

ـ هيا اذن ، ماذا تنتظر ؟

فاندفع طاهر ، لا الى المرعى المسور ، بل الى جدته • وسمعت ما كان لزاما عليه أن يقوله ، وأخذت تفكر مليا • وتكلم مرة أخرى وسأل طاهر :

« قولى لى يا أنـا ، يا جدتى ، تكلمى ، أى جواد » ؟

فقالت السيدة العجوز اليابسة :

« ضع الشكيمات عليهـا كلها • وانتق الجواد الذى يقفز أعلى من غيره • وسـوف تجد عددا وفيرا من الأنواع : جياد سـباق ، وخيل أجرة ، وجيادا أصيلة ، وطلوقة ، وجيادا تحال المـاء • والجواد الذى يقفز أعلى من غيره هو الجـواد الذى يصـلح لشـاب قوى مثـلك » •

وجرب طاهر كل ما أشير عليه به ، ولكن خاب أمله ، اذ لم يقفز جواد واحد عاليا بدرجة كافية . وكان يتخذ طريقه عائدا الى السيدة العجوز ليبلغها بما حدث ويستفهم منها ، ولكن بينما كان يغادر المرعى المسور وقعت عيناه على جواد منفرد . فنظر الى الخلف . لم يكن يستحق كثيرا أن ينظر اليه . فقد كان نحيلا خاليا من الجاذبية . أوه ، كلا ، ماذا يدعوه الى أن يزعج نفسه ، ومهما يكن من أمر فانه اعتقد أنه لا ضررمن المحاولة . وكان طاهر يقلب هذا فى ذهنه ، ولكنه سار عائدا بالفطرة . الى الجواد الوضيع الذى كان يقف وحيدا فى الطرف الأقصى . ويا للعجب أيها المستمعون الطيبون كان الجواد المتواضع هو الحصان المطلوب . فما ان وضع طاهر فى فمه اللجام ، وعدل وضع الأعنة ، وقفز على ظهر الحصان الرزين ، الذى كان فيما يبدو ، مبتعدا عن الناس حتى قفز وكاد يمس السقف .

وأبلغ طاهر ذلك لأبيه السلطان ، فسارا معا الى الساحة ليشاهد الجواد الذى وقع عليه الاختيار . وقال : « يا طاهر ، ليس من شك فى أنه هناك جيادا أخرى » .

ـ « نعم يا أبى ، هناك الكثير » .

ـ « اذن فلم اخترت هذا الحيوان » ؟

ولم يقتنع السلطان ولم ينتظر أن يثبت أنه محق فى اختياره . كان طاهر قانطا ، ولكن كانت هناك دائما تلك المرساة للجدة ، جدته أنا ، يرسو عليها . كانت أسارير وجهها كلها متهللة ، وذراعاها المحبتان ممدودتان .

وقالت له : « اياك أن تستسلم لليأس . وخذ حصانك المختار الى بقعة مشمسة دافئة فى الحقول . واتركه يأكل ويتجول فى الهواء الطلق » .



وأخذ طاهر يخرج مقتادا الحصان بين الفينة والفينة ، وهو يسحبه وراءه • وفعل ما قيل له فتحول الحصان تقريبا فى خلال بضعة أيام • وكانت رؤيته الآن تقر بها العين وكان طاهر فخورا به • وكان يأخذ الجواد الأصيل لكى يركض كل صباح مظهرا ما يتمتع به من جرأة هو والجواد • وفى احدى هذه الجولات التى يمتطى فيها صهوة الجواد أطلق لنفسه ولجواده العنان • وكانا على تخوم القرية حيث تنمو الأشجار الخضراء بجانب النهر ، ويرعى الرعاة ماعزهم • وكانت هناك راعية مستلقية على بطنها ، وساقاها مرفوعتان خلفها ويتحركان جيئة وذهابا فى حركات ايقاعية ، بينما تدندن لحنا وتنسج خيوط حصيرة • وتوقف طاهر ، ولكن الفتاة الصغيرة الجميلة لم تنزعج وتطلعت الى الرجل الذى يمتطى صهوة الجواد ، وابتسمت • فقطع طاهر أوراقا خضراء من الشجرة فوقهما وناولها باقة منها • فنهضت وأخذتها بابتسامة أخرى ونظرة اعجاب • والتقت فروسيته ونظراتها • واعتاد طاهر أن يفعل هذا وأحب الفتاة واستمتع بلقائها • وبعد أسابيع تشجع وحلت عقدة لسانه •

ووافق السلطان مغتبطا على أن يطلب يد الفتاة لابنه • وأمر وزيره بأن يدعو اياها • ولكن يا للعجب أيها المستمعون لى ، لقد تبين أن رحلة الوزير سوف تكون طويلة • ولم يتوقع أحد أن تستغرق ثلاثة أيام • فقد أخبرهم طاهر أن الأمر لم يستغرق الا نصف ساعة وهو راكب جواده ، لكى يصل الى حيث يعيش قوم الفتاة • وكان الوزير ورجله منهوكى القوى ، ولكنهما جاءا ومعهما أخبارا لطاهر الذى هجرته حبيبته • عجبا ألم أقل لكم اسم الفتاة ؟ انه شمسية • والآن هيا بنا نلتفت اليها والى أبيها •• كانت رحلتهما الى بلاط السلطان طويلة • اذ كانت تمتطى صهوة جواد من نوع السيسى ، يمشى متثاقلا بجانب أبيها الذى كان يمتطى صهوة جواد اختير خصيصا ، وعليه سرج مزين خصيصا وفى فمه لجام وعلى عينيه مثمتان •

كانت هناك ألوان زاهية وحمراء وصفراء وألوان محددة وفى الطريق الى بلاط الملك كانت شمسية تعلق « دالو » قربة مليئة باللبن ، على كل شجرة يمران بها . وكان طاهر لا يعرف أن حبيبتـه وأباها كانا فى طريقهما الى بلاط السلطان . وركب طاهر الى الغابة بجانب النهر . التى كان عادة يتقابل فيها معهـا . ولم يكن هنـاك أى أثر لها أو لمـاعزها . واغتبط عندما أخبره راع من فتاة وأبيها رآهما ، يركبان متجهين الى القرية ، وقال لنفسه : « لابد أنهما هما » وقفل راجعـا بسرعة .

وفى طريق العودة أحس بجفـاف فى حلقه ، فاسـتدار الى النهر ليطفىء ظمـأه ، فشاهـد وعـاء يتدلى من شـجرة . وكان اللبن فى « الدالو » لبن ماعز طازج بارد خفيف . وقال لنفسه هل يمكن أن تكون شمسية . وعجبا ! أيها الأصـدقاء الطيبون . لقد استغرق طاهر فى حلم . وشرد ذهنـه وركض الحصان رأسـا الى الصحراء ، التى لا تبعد عن النهر كما تعرف .

وعاد طاهر الى الأرض مرة أخرى عندما رأى بيتا على بعد . فظلل عينيـه بكفـه من ضـوء الشمس البـاهر وكان على يقين أنه كان هنـاك واحـد واستحث جـواده بشـدة للوصـول الى هنـاك قبل حلول الليل . وأفلح . كانت الشمس الكبيرة المسـتديرة تنطلق بسرعة الى البيت لتستريح . وفى وقت تناول الشاى وجد وتدا فربط فيه جواده خارج البيت الساكن المنعزل ، وكانت الدنيا ظلاما . ودفع البوابة متسللا ، وفوجىء بأمر أذهله لم يحدث له فى حياته . كان هناك جمع من الناس يغطون فى نوم عميق ، واحدا وراء الآخر . ورقد بعد واحد كان منفردا قليـلا عن الآخرين . ونام مثل كتلة من الخشب ، واستيقظ بفعل لسع حرارة الشمس الشديدة لقدميه . عجبا ! عجبا ! مرة أخرى . كان هنـاك سـبعة من الفتيـان وبنتـا مستغرقين فى

النوم حوله ، وبين كل اثنين سيف ، والفتاة فى الوسط تماما . وغطس طاهر رأسه ، وحبس أنفاسه ، وكتبت له النجاة لأن النهار انبلج .كان طاهر هو الرجل الغريب . وحملقت فى وجهه عيون جاحظة .

وصرخ صبى : « يا للبذىء الدنس » .

وصرخ آخر : « قتل عمد . قتل عمد » .

ولم ينزعج طاهر وظل هادئا ، وعندما هدأ الفتيان قال : « أى قتل ! هل يفتح السفاحون مثل هذه البوابات الثقيلة المغلقة بمتاريس محكمة مثل متاريسكم ويذهبون ليناموا فى هدوء ؟ » وحالما انتهى من سؤاله ليطرح آخر ، كانت هناك حركة اضطراب مصحوبة بأصوات راعدة خارج دار الضيافة . كان هناك صهيل جياد وصوت صليل ودك عند البوابة . ونظر أحد الفتيان الى طاهر وقال : « ان هؤلاء الأشقياء عادوا الى هنا . وعليك أن تبقى هنا أيها الضيف العزيز ، لترعى شقيقتنا » . وبدأت أشياء عديدة فى نفس الوقت .

سار طاهر الى البهو ، وكانت الفتاة هناك تجلس على أريكة ، ولا يبدو عليها أى انزعاج . وكان القتال يدور بشدة خارج دار الضيافة . وأخذت عيناه تجولان بنظراتهما حوله ورأت الفتاة فيهما سؤالا يريد أن يطرحه فقالت مفسرة : « ان هؤلاء الفرسان يغيرون كثيرا على البيت لأسرى كى أكون عروسا لزعيمهم . ونحن ، اعتدنا أن نعيش بجانب ضفة النهر مثل كل الآخرين ومهما يكن من أمر فاننا وقد تعبنا من غاراتهم انتقلنا الى هنا فى البرية الموحشة ، ومع ذلك فان السلام لايزال بعيدا عنا كما كان دائما . فالزعيم مصمم . وأشقائى أشد تصميما . ويبدو أن المعركة بين الارادات لن تنتهى » . فتميز طاهر غضبا . واندفع الى ميدان الغارة . وقد أفاده جواده تماما ، وكذلك

فعل سيفه . كان سيفا يمانيا خفيفا فى اليد ، ثقيلا على العنق . وكان الغبار يحجب المتحاربين ، ولكن يبدو أنها كانت معركة حاسمة أنهت كل المعارك ..فقد أطلق المغيرون سيقانهم للريح تاركين وراءهم الجياد والسيوف . وكان الفتيان سعداء فاحتضنوا طاهرا وشكروه . وقالوا : « اسمع يا ضيفنا العزيز . انك تصلح لشقيقتنا . ونحن لا نعبأ بالرؤساء والسلاطين . وهى أيضا تصلح لك » .

ــ « هذا كرم شديد منكم ولكننى لست حرا . فأنا أتعقب شخصا معينا سار فوق الرمال . ولازلت أبحث عنه . وأنا لست فى طريقى للبيت » .

ــ وأين بيتك ؟

ــ أنا ابن سلطان شولين .

ــ آه حسنا ، انه ليسرنا أن تعرف أن رجال الزعيم كانوا يزعجوننا طوال السنين الماضية .

ــ انى أعرف هذا حقا .

ــ ان كل ما لدينا من القمح والشعير والعسل والماشية والذهب والفضة ملك لك . وكذلك شقيقتنا قمرية .

ــ لا يا أصدقائى ، لا .

ــ ولكن أيها الأمير الطيب ، هذه هى الطريقة الوحيدة التى سوف تساعدنا على أن نعود الى حيث عاش أسلافنا بجوار ضفة النهر . فنحن نريد أن تفلح أرضنا القديمة ونقطع خشبنا ونشم رائحة شباك الصيادين . خذ قمرية فانها سوف تكون فى أمان معك .

واقتنع طاهر . ووسق الفتيان دوابهم بالأشياء التى وعدوه بها . وانتقوا أجمل جواد لقمرية . وبدأ رحلتهما معا الى شولين . وافترقوا

عن طاهر ، ودموع الفرح تترقرق فى عيونهم • واستودعهم طـاهر ، لينطلق ويواصل بحثه • وكان مقررا أن يلتقوا فى شولين عندما ينتهى من مهمته • والآن أيها المستمعون ، هـل ستكون قمرية أم شمسية ؟ لسوف نرى •

وقد كان والد شمسية فى شولين الآن منذ حين ، وكان يتميز غيظا لأنه لم يحظ بعد بلقـاء مع السـلطان • ولم تشعر شمسية بالحرج • وعندما جـاء اليوم وتهيـأ اللقـاء انحنت شمسية محيية وقـالت : « يا سلطان البر والبحر ، لابد أن يغلبنى من يخطبنى لكى يتزوجنى • وأى جواد يصلح لى » •

وقال الوالد مفسرا : « يا سلطان البر والبحر • ان هـذا عهد قديم قطعته ابنتى على نفسها • فقد بدأ الخطاب يأتون ليطلبوا يدها عندما كانت فى العاشرة من عمرها • ولم نعرف ماذا نفعل • فاقترحت أن تتحدى كل واحد منهم ولكنها كانت دائمـا الراكب الأفضـل • وبدا أن الجيـاد يسرها جدا أن تفوز بالسباق لها ، فهـذه الجيـاد مخلوقات جميلة تحب غيرها من المخلوقات الجميلة ومهما يكن من أمر ، فاننا نأمل ونضرع الى الله أن يفوز ابنك بالسباق » • وقبل السلطان التحدى •

وركب طاهر الى القرية ولكن صادفه على تخوم القرية قدر كبير من الاثارة كانت هناك جموع من الناس تتحدث ، والغبار يرى على بعد والنساء يزغردن • فسأل قائـلا : « ماذا حدث لشولين ؟ » فأخبرته سيدة عجوز بأمر شمسية وخطابها الذين فشـلوا • وقالت : « انهـا تسبق فى الركوب كبير الملائكة نفسـه اذ ان لها طريقة فى التعامل مع الجياد » •

ــ « هل لك أن تصنعى معى معروفا » ؟



ـ « نعم اذا استطعت • ما هو » ؟

ـ « تأخذين هـذا الخاتم ، وتتسللين الى القصر ، الى غرفـة شمسية ، وتضعيه فى أصبعها الوسطى » •

وقبلت السيدة العجوز • ووجدت طريقها عبر البوابات والحراس والخادمات والدهاليز • وكانت كلها لا تحصى • ولم تبتهج شمسية • وصفقت بيديها وأمرت قائله :

« اطردوهـا للخـارج ، اطردوا هـذه الحيزبون العجوز التى تغضنت بشرتها • واضربوها بعصا من شجرة ليمون فى ركن الحديقة » •

وأبلغت السيدة ما أصابها لطاهر • فطغى عليه الفرح • وقالت لنفسها : « غريب ! » ولكن قطع تعجبها سبيكة من الذهب فى راحـة يدها وعبارة « شكرا لك يا خالتى • أشكرك شكرا جزيلا » • وكان طاهر يشعر بأنه مغلوب على أمره لدرجة أنه عجز عن الكلام • وقـال للمرأة ان غضب شمسية كان نذيرا طيبا • فالرسـالة واضحـة له • لقد أرادت أن تلقاه تحت شجرة الليمون • وقفز فى الهواء وهو يكاد يطير فرحا •

وعندما التقيا تحت شجرة الليمون أبلغته شمسية بخدعتها بشأن السباق • لقد كانت طريقـة لابعاد الخطـاب • وأبلغها بمغامراته فى البريـة • والتهم كل منهمـا الآخر • بالنظرات وحـدها • فالتقبيـل والاحتضان لم يكن مسموحا بهما فى تلك الأيام •

ورتبا سباقا يجرى بينهما فى اليوم التالى • وجرى الأمر كمـا دبرا • كان طاهر يسبق كثيرا شمسية ولكنه جذب عنان جواده ليسمح لها بأن تركض لمسافة أقرب • وأخذها برفق الى سرجه وهمست تقول : « ان أبى لن يصفح عنى وأردفت تقول : « انه رجل شديد وسـوف

يتتبعنا الى أطراف الأرض » • والله له وسائله ، بطبيعة الحال • فقد نجحت شمسية وطاهر • وفى وقت مناسب كان العصفوران العاشقان بعيدين عن هذا كله ، آمنين ، وسالمين ، لا يؤنسهما أحد فى الصحراء• ولكن عجبا يا أصدقائى هل تذكرون ما قلته لكم من أن قمرية وأشقاءها ، كانوا منذ فترة طويلة على الطريق ، فرحين اذ كانوا يتوقعون أن تتزوج من الأمير الذى تبتغيه ؟ هل تذكرون ؟ كان أشقاؤها السبعة هناك وكان أبوها هناك ، وأيضا أقاربها الأقربون • كانوا جميعا يمشون متثاقلين الى بلاط السلطان •

ولم يكن السلطان مغفلا • فبينما كان طاهر وشمسية يقبلان بعضهما ويحتضنان على جواديهما ، بعيدا عن أنظار كل أحد ، وقمرية وقومها ياتطون ظهور جيادهم ماضين قدما ، كان يجلس على أريكته ، يتلقى أنباء عنهم جميعا • اذ كان جواسيسه عديدين فأبلغوه بها ولم يكن مغفلا ، وكان هناك يدفع بسبابته خده الأيمن ، ويرسم لهم جميعا صورة فى ذهنه • وكانت رؤاه لهم وهم يركبون ، ترصعها مداعباته الشابة • كان الهيام والرغبة تملآن أعطافه وكان يعيش حياة قد تهم الشيطان • وخطرت بذهنه مشاهد الصحراء ، عندما قام بمغامرات عظيمة تتسم بالتهور عندما كان فى سن طاهر ، وهو أمير عرجين الذى قدر له أن يصبح سلطان شولين • واختلطت الرؤى فى ذهنه ، الفتيات اللاتى أغواهن ، وأشجار النخيل الفارعة الخضراء فى عرجين ، والشيخ شيكون الذى حفظ على يديه القرآن ، والتلال الجرداء فى سحابة ورجال النبى ، كل هؤلاء مروا فى ذهنه فى خطوط متصالبة ـ تلال وأنهار ورجال وجياد وشيوخ • فى سديم مختلط •• وفى وسط السديم • وقف عاليا الشيخ عمر كبرج شامخ • ولم يكن مدفونا بعيدا عن المكان الذى كان يجلس فيه ، غارقا فى أحلامه وفكره ، فى قبضة الهيام والرغبة •

وأعاده الى عالمنا هـذا وزيره ، الذى أتى ومعه أنباء أخرى عن أماكن وجود كل من شمسية وطاهر وقمرية وأشقائها السبعة • وبينما كان الوزير يروى حكايته شرد ذهن السلطان الداهية مرة أخرى فى عالمه الحافل بالحب والهيام والسلطان والمجد • وكان يفكر وهو يبتسم لم لا يرضى كلتا الفتاتين • وقال بصوت عال ليس لأى أحد بالذات : « فلنر منهما معا » • وعندئذ تماما دخل طاهر وقبل يديه وتمتم بشيء وعيناه مسبلتان • فقال السلطان « ولكن قل لى كل شيء يابنى » • فأخبره طاهر بكل شيء وهو يجلس بجانبه • ولم يسمع طاهر فى حياته قط أخبارا أحسن • ولم يحب أياه فى حياته قط حبا جما مثل هـذا •

وقال برفق وهو يربت على لحيته :

« استمع الى يابنى ، لقد عشت أكثر مما عشت • أو أنا أعرف وسائل النساء • ولاحظ مع ذلك » • ولوح بسبابته الحادة وقال : « أنا لا أسير بعد مرتكزا على عصا » وبعينين لامعتين غادر الأريكة وبدأ يذرع القاعة جيئة وذهابا ، وهو يتحدث • وفجأة توقف تماما ، وقامته منتصبة ، مواجها طاهرا الذى كان لايزال جالسا مثل قطة ، وهو يتساءل ما معنى كل هـذا • وعجبا تنبه طاهر منشرحا مسرورا •

ـ « انك تحب شمسية يا طاهر ألست تحبها » ؟

ـ نعم يا مولاى سلطان البر والبحر •

ـ لا تخاطبنى بلقب سلطان •

ـ معذرة يا أبى •

ـ ذلك أفضل • اذن فخذها زوجة لك •

فقفز طاهر وجثا على ركبتيه وأخذ يقبل طرف ثياب أبيه المخملية •

ـ شكرا لك يابنى • وماذا عن قمرية ؟

ـ ماذا عنها يا أبى ؟

ـ ألا أصلح لها ؟

وكان هنـــاك ضحك وتصفيق وفرحة • وأقبلت الحاشـــية ليروا ما كان يحدث ، ولكن الأب والابن كانا يتعانقان ، وقد نسيا الحجرة المزدحمة • وأذاع السلطان الخبر • واستمر الرقص والموسيقى والطعام طوال شهر كامل فى كافة أرجـاء شولين • وكانت شمسية تبدو مثل شمس حقيقية نزلت من السماء ، تشع بالدفء والضياء وكانت قمرية مشرقة مثل القمر الذى سميت باسمه ، تصلح أن تكون ملكة للبلد •

***

اننا نحفر الأرض ونبذر الحب ونلوذ بشباك النبى محمد •

# صادق وخديجة وآمنة

لم تستطيع خديجة وصادق أن يحتملا فراق ابنتهما الوحيدة آمنة •• وكانت قد تزوجت من فرح نورى وهو قريب لهما ، يعيش فى قرية أخرى عبر النهر • وابتاعا زكيبة ملآها بالذرة والسكر والشاى ، استعدادا لزيارة آمنة • واقترحت الزوجة طحن الذرة • فسخر الزوج من الفكرة • لمـاذا ندفع للطحان ؟ ان الله خلق طواحين من الأسنان والأضراس فى الأفواه يمكن أن تؤدى العمل نفسه تماما ، وبلا مقابل • وجلسا خـلال الليل يطحنان بأسنانهما ويطحنان بين حجرين كبيرين •

وفى سـاعة مبكرة من الصباح دفعـا لصاحب قارب نهرى ملء قصعتين من البلح وعبرا النهر • وفرحت آمنة برؤيتهما • وكان لديها ولد رضيع علما بأنها رزقت به ولكنهما كانا لم يرياه حتى ذلك الوقت • وحملته الأم ، فى حين اندفعت آمنة لتعد لهما شرابا • وعندما عادت صدمت وفزعت وقالت : « أماه ، ماذا فعلت » ؟

كانت خديجة قد لفت الطفل باحكام فى قطعة من القماش ، ومع ذلك فانها قالت لابنتها ألا تقلق • فالطفل نائم فحسب • وأسقطت آمنة شراب الليمون « والعبرى » وجثت على ركبتهـا لتفك اللفائف عن الطفل • واستغرقت فى عمل ذلك بعض الوقت ، وعندما انتهت من هذا غصت بالبكاء وصرخت قائلة : « لقد قتلت ابنى » •

ـ « لا يا آمنة • لقد كان فى رأســه جرح • فكويته بمسمار بعد تسخينه » •

ـ ولكن يا أماه •

ـ لا انه نائم •

فالتقطت آمنة ابنها واندفعت الى الخارج ، حيث كانت الجمـال تقضم أزهارا من أشـجار السنط • ووضعته بينهـا وصرخت بأعلى صوت • فأقبل زوجها يجرى ، ورأى ابنه الميت • وأخبرته آمنة بأنها داست عليه بينما كانت تملأ جرتها من النهر •

وكان لابد من أن تنتهى الزيارة المشئومة ، وعلى هـذا انتهت • وكان فرح طيبا مع حميه وحماته • ولم يعرف شيئا مما حدث بطبيعـة الحال ، وأهداهما جملين وسيفين ومديتين وعلبا من العسل وعلبا من المسلى • وقام القارب النهرى برحلة خاصـة نقل فيها خديجة وصادق والهدايا •

وفى الطريق الى البيت مرا بشجرة آخذة فى الاضمحلال فحزنا لرؤيتها وقالا :

« يا للشجرة المسكينة ، لم يكن هناك أحد يرويها » • ورويـاها بالمسلى الذى قدمه لهما فرح وسارا راضيين ومسرورين من نفسهما • وبعد ذلك لاحظا شجرة ، أوراقها الخضراء ذابلة تتساقط ، فسنداها بالسيفين اللذين أعطاهما لهما فرح • وسارا خطوة للخلف ليلقيا عليها نظرة • كانت فى حالة جيدة ، وكانا سعيدين ، ولكن عجبا أيها المستمع لى ، عجبا ! فجـأة شد صـادق للخلف جمله ، واقترب من خديجـة وقال لها :

« انظرى يا امرأتى ! ألسنا أغنياء ؟ » فنفت الاتهام ، ولكن كانت لديه أسبابه الوجيهة •



وقال وهو يشير باصبعه الى ظل الجملين : « اننا نركب أربعة جمال ، فى حين أن اثنين يكفيان » • فأثنت خديجة ثناء عاطرا على قوة ملاحظته • وذبحا أحد الجملين ، ولكن بقى لهما جمل واحد لا ثلاثة •

وقال : « ينبغى أن نمضى عليه فى رحلتنا » • وركبا على ظهره معا وهما خائرا الهمة ومحزونان • ومهما يكن من أمر فانهما ما ان نهض الجمل على قدميه حتى غمرتهما السعادة • فها هما الآن شخصان وجملان • وكان ذلك هو الشيء اللائق • وبينما كانا يقتربان من البيت توقف صادق ليقول : « انظرى يا امرأتى : ان تلك الأرض المخضرة مصفرة ، وسوف تجف قريبا » • وصبا ما فى العلب من عسل على الحشيش • وكانا سعيدين راضيين وسارا فى طريقهما • فقالت : « حسنا ، ها نحن أولاء • ولم يعد الجمل يفيدنا فى شيء ، وعلى أية حال أين نربطه •

فقال : « هذا أمر سهل • فلنذبحه » •

فقالت : « كم أنت حكيم •• اننا نستطيع على الأقل أن نأكل اللحم • فلنفعل هذا » •

ونشرا كتل لحم الجمل على حصيرة فى حجرة الضيوف ببيتهما • وكان كل واحد فى القرية قد ذهب الى حفل عرس فى مدينة مجاورة •

فأغلقا بابهما وانضما الى الحفل • وأمضيا الليلة هناك وعادا بعد ظهر اليوم التالى • وما ان دخلا حتى طارت فى وجههما أسراب من الذباب والحشرات • فأغلقا البوابة بسرعة واندفعا الى العمدة ، رئيس القرية •

وقال صادق : « أيها العمدة صابر • لقد أكل ذباب هذه القرية لحم جمل كامل : لحم جملنا الوحيد » •

« اجلس يا صديقى ، وأنت يا أختى ، وخبرانى بكل شيء عن هذا . ولكن تجرعا بعض المـاء قبل أن تبدأ فى أن تقولا لى هذا .. فأنتما تلهثان تعبا » .

وأحضرت الجـارية مبروكة بعض « العبرى » الحـلو فانتعش صادق . ولعق شفتيه ، ونظم بعض الشيء شاربيه وفى هـدوء روى قصة الجمل الذى أكله الذباب . فرفع العمدة رأسـه المنحنى ، وأمسك بذقنه من راحتيه وتطلع الى الأرض بشدة . كان يفكر متأملا . وقـال أخيرا : « أقول لك يا صادق . اذهبا أنتما الاثنان واقتلا « كل ذبابة » كل ذبابة تقع عيونكما عليهـا أتدركان ما أقول » ؟ ولكن عجبـا . عندما نطق بآخر كلمـة من هـذه الحكمة المدروسـة ، حطت على وجهه فى هدوء ذبابة . وكان مع صادق عصا له اتخذها من فرع شجرة فضرب بها الذبابة بشدة ، ولم يعد للعمدة وجود . فقد مات .

***

اننا نحفر الأرض ونبذر الحب ونلوذ بشباك النبى محمد .

# حمى ، النصاب

**كـان** لحمى حمار صغير نحيل ، تضارعه حمير أخرى ، على الرغم من أنه كان على ما يرام اذ يحمله الى أماكن عديدة • وذات يوم قال لنفسه انه لا يستطيع أن يحتمل الطريقة التى ينظر بها النـاس اليه شزرا وهو يمر بهم •

فوضع قطعة من الذهب فى است حماره •

وكان هناك رجل بدين موفق ، كان مارا عندما كان حمى جالسا أمام بيته ، ينظف أنفه بأصابعه • « السلام عليكم » •

فقال حمى : « وعليكم السلام » وأردف يقول :

« أيها الرجل انك لا تستطيع أن تمر ببيتى على هذا النجو » •
فقال الرجل عابر السبيل : « ولكن شكرا لك » •

فقال حمى الذى احتج على أن بيته ليس جبانة يمر بها النـاس هكذا ، وأصر قائلا : هكذا ، وأصر قائلا : « لابد أن تتناول شرابا وشيئا من القهوة » • وقال ان اكرام الضيف سـمة من هم على قيد الحياة • وأن الضيف لا يستطيع أن يأبى هذا •

وكان الضيف يحتسى قهوته ، عندما نهض حمى فجـأة فى خبل •

وقال لضيفه : « ان هذا الحمار مزعج . ففى كل مرة يكون لدى فيها ضيف يأتى ويتسكع » . واندفع نحو الحمار . والتقط عصا غليظة وبدأ يضربه بلا رحمة . وأوجع الضرب المخلوق وآلمه ، فقذف بقطعة الذهب . وأسرع حمى بالتقاطها ووضعها فى جيبه ، ولكن الضيف لم يفته أن يلاحظ هذا الشىء غير العادى .

ـ « أهذه هى الطريقة التى يستجيب بها حمارك عادة عند ضربه » ؟

ـ « ليس فى كل مرة » . وهز رأسه عرضا بطريقة من يقرر حقيقة ، دون أن يهتم » .

ـ « ليس فى كل مرة ؟ اذن متى » ؟

ـ « أقول لك الحق ، انه يفعل ذلك طوال الوقت » .

ـ « ولم لم تقل هذا » ؟

ـ « أوه ! لقد ظننت أنك لن تصدقنى » .

ـ « ولكن هذا شىء غير عادى ، أليس كذلك » ؟

ـ « بلى ، ولكننى محظوظ . لقد اشتريته من بدوى لا يعرف الفرق بين الذهب والروث » .

ـ « أوه ، هيا ، على أية حال ، بدوى أو غير بدوى هل لك أن تبيعه لى » ؟

ـ « وهل تستطيع أن تدفع ثمنه » ؟

ودفع الرجل الموفق ثمنا طيبا وانطلق سعيدا راضيا . وأطعم الدابة كما قال له حمى ؛ حشيشا أخضر نديا فى الافطار وشعيرا فى الغداء وقمحا فى العشاء . وأخذ الحمار يبدو جميلا نظيفا وجذابا .

وأقام المـالك الجديد حفلا ليعرض كنزه الذى اقتناه حديثا • ويعرضه للأنظار قليلا • ولكن عجبا ! لقد أحضر الحمار الى الفسطاط الذى كان مقرر أن تقام فيه المـأدبة ، وسار المـالك الجديد نحوه بخطوات محسوبة • ونظر الى العبد الذى أحضر الحمـار بعينين متسائلتين ، وتطلع الى الحمار • وانطلقت سهام نظراته ونظرات العبد من أحدهما للآخر والى الحمار •

وجاء الرجل بعصاه الغليظة وضرب الحمار ضربا مبرحا • فقفز الحمار عاليا وانكمش حتى اقترب من الأرض ، وأخذ يضرط كلمـا أحس بالعصا تنهال على ظهره ، ومضى الرجل فى ضربه • وفى خـلال بضع دقائق بدأ الحمار يتبرز • وتناثر الروث فى الفسطاط •

# كيف توصل حمى الى الزواج من امرأتى عمه

كان حمى مصدر اثارة لكل شخص فى القرية .. كانت أفعاله الخبيثة لا تؤذى ، ولكنها كانت تزعج . واجتمع أهل القرية عقب صلاة الجمعة وقرروا أن يذهبوا الى عمه فى جماعة . وقال أكبر شخص لعم حمى :

« ان ابن أخيك يجعل الحياة صعبة فى القرية » ؟ وروى كل واحد حكايته . وقال العم انه سوف يكبح جماحه .

وأغرى حمى بالدخول فى زكيبة ، حملها عاليا على كتفه الى النهر . اذ لم يكن يجدى معه أى جدل ، وعلى هذا فانه قرر أن يتخلص منه . وما ان وصل الى أقرب نقطة للنهر حتى غدا متعبا منهوك القوى . فأنزل حمله وجلس ليلتقط أنفاسه . وجلس ليستريح هنيهة قبل أن يقدم على فعلته . وغلبه النعاس ، وفى آخر الأمر استغرق فى النوم .. ورأى حمى ما حدث من خلال ثقب صغير فى الزكيبة . وبالاهتزاز فترة نجح فى التحرك بعيدا تماما عن عمه الذى كان يغط فى نومه .

ولم يستطع حمى أن يسمع شخصا آتيا ، وصوت جمال تضغط على شفاهها معا . واقتاد البدوى جماله الى النهر ، وبينما هو ينتظر ،

رأى الزكيبة تتحرك . فأحدث فيها ثقبا وعجبا ! كان هناك رجل ضئيل الجسم ملتفا فى داخلها . فمزق الزكيبة ، واذا به أمام حمى ؛ رجل صغير باهر ، وعيناه تلمعان .

ـ « ماذا حدث لك أيها الفتى » ؟

ـ انه عمى .

ـ « ماذا تقول عن عمك » ؟

ـ انه غاضب منى .

ـ ولماذا ؟

ـ اقترب منى ، لأنه ها هو ذا هناك مستغرق فى النوم .

فاقترب منه البدوى وأخذ حمى يهمس فى أذنه لفترة طويلة .

فانفجر البدوى ضاحكا . وقال :

ـ « أواثق أنت أنك لا تسخر منى » ؟

ـ « أنا واثق بطبيعة الحال » .

ـ « ولكنك لا تلقى الناس فى النهر لأمر مثل ذلك » ؟

ـ « حسنا هذا هو أسلوب عمى » .

« يا له من رجل غبى حقير » .

ـ « لا تشتم عمى ، أرجوك » .

ـ « أنت على حق . هيا اخرج من الزكيبة . وسوف أفعل ما يريد منى أن أفعله » .

ـ أتعنى هذا ؟



ـ « نعم أعنيه » وزحف الى الزكيبة • فربطها حمى ربطا محكما ، وانطلق بعيدا بجماله •

واستيقظ العم حوالى وقت الغروب • وما ان لمس الزكيبة بدأ البدوى يحتج • وأخذ يصرخ ويرفس بقدميه وكان يصيح بأعلى صوته ، ويقول شيئا ما • فقال العم لنفسه « آه حسنا ، هذا طبيعى ، فمن يختار أن يموت بهذه الطريقة • اننى لن أفعل » • وأسقط حمله فى النهر • ونظف كفيه بحك كل واحد منهما فى الآخر ، وسار عائدا الى البيت •

ولم يصدق عينيه • كان حمى يجلس هناك يرقب الشمس الغاربة وطرف بعينيه وطرف بهما ، وهو يفكر فيما يرى من أشياء • ولكنه كان هو حقا ، بلحمه ودمه وعظمه •

ـ « كيف حدث هذا أيها العفريت الصغير ؟ ألم أقذف بك فى النهر ، منذ هنيهة » ؟

ـ لقد فعلت يا عمى العزيز ، ولكنك لم تأخذنى الى عمق كاف أو تلقى بى على سنام تيار هادر •

ـ « و •••• » •

ـ « واكتسحتنى الأمواج الحانية ثانية الى الشاطىء » •

ـ « انها حقا أمواج حانية •• وما هذه الجمال » ؟

ـ « انها علقت جيدا وطمرت ، أليست كذلك » ؟

ـ « ألا يمكن أن تكون جادا وتقول لى جمال من هى » ؟

ـ « مما يؤسف له ، أن فى وسعنا أن يكون لدينا المزيد منها اذا ما فعلت شيئا اضافيا صغيرا » •

ـ ما هو ؟

ـ كان يجب أن ترمى زوجا من الأحذية عندما ألقيت بى •

وكانت هناك وقفة • وكان هنــاك تفــكير عميق • ان كل شىء لا يمكن أن يفهم • واقترح العم أن يكررا العمل مرة أخرى ، بصنف اضافى من الحذاءين •• فلا ضرر من تملك جمال بهذه الســهولة • وكان يتأهب لكى يلف نفسه فى الزكيبة ، عندما تذكر فجأة الحذاءين • فرجاه حمى ألا يزعج نفســه • وعرض أن يذهب الى البيت ليحضر الحذاءين • وسر عمه ـ فها هو ذا ابن أخ مهذب حسن الســلوك وبدأ يحلم بالجمال التى سوف يملكها بالبقاء فقط فوق حوض النهر لبضع ساعات ، كما فعل ابن أخيه •

واندفع حمى الى الداخل ليحضر زوجا من الأحذية • فى الظــاهر واستمعوا يا من تابعتم الحــكاية حتى هــذا الحد • وقــال حمى : « يا بنات » • فبرزت زوجتا عمــه هجــلة وعزيزة على التعاقب من غرفتيهما • فقال للزوجتين أ « اقتربا • ان رجلكما أصدر لى تعليمات بأن أتزوج منكما : فلم يصــدقا آذانهما ، ولكن عزيزة سألته قائلة : « منا نحن الاثنتين » •

وصاح حمى ، الذى لم يكن أبدا ممن تنقصهم سرعة البديهة ، من الداخل مناديا عمه : « عمى العزيز ، الاثنتان أم واحدة » ؟

فصرخ العم ، الذى كان لا يعلم بوجود عزيزة قائلا :

« الاثنتان أيها الحمار الغبى • ماذا يستطيع أى أحد أن يفعل بواحدة » ؟ مشيرا بطبيعة الحــال الى زوج الأحذية ، وكان حمى يثأر لنفسه • وحمل عمه عاليا على كتفه ، وقذف به فى النهر • ودفع الزكيبة الى الداخــل وعمل على ألا تطفو • ولم يعد عمــه موجودا على قيد الحياة • وتزوج من هجلة وعزيزة معا • فأى شيطان هــذا الرجل •

نعم اننى أوافق • وسوف تتساءل يا عزيزى المستمع ، كيف حدث ذلك ، كيف أقنع البدوى بأن يدخل فى الزكيبة ؟ حسنا ، هـذا ما يبين كيف حدث ذلك •

عندما سأل البدوى صاحب الجمال عن حالته التعسة حاك قصة فصدقها البدوى العجوز الساذج • قال للبدوى :

« انه لأمر يدعو الى السخرية الشديدة لدرجة لا تصدق ، يا أخى • ان أهل القرية يريدون منى أن أكون عمدة • وذلك أمر أكرهه • فأنا لا أستطيع أن أزعج نفسى بمشكلاتهم • فلدينا جميعا ما يكفينا منها • وتركونى أنصرف عندما أدركوا أننى لست بالشخص الذى يمكن أن يتحدثوا معه فى أمور • وبعد أيام أتوا يحملون لى شروطا قليلة يتعين على أن أراعيها اذا كنت أقصد أن أعيش معهم • لقد أرادوا منى ألا آكل شيئا سوى زبد ولحم ، وأنا أكرههما على السواء • وقالوا ، علاوة على ذلك ، اننى يجب أن أشرب عسلا كل يوم ، وهـذا أمر يصيبنى بالغثيان » • وكان البدوى يستمع فى سرور أى أحمق مأفون هذا الشاب • وكان حمى هادئا ساكنا كالفأر ، فى حين كان البدوى يقلب هـذه الأفكار فى ذهنه • وعندما أيقن أن هـذه الحكاية تتفق مع ما أراد سأل قائلا :

ـ « ألا تعتقد أن قومى مجانين » ؟

ـ « أوه ، كلا ، انك أنت المجنون » •

ـ « هل تقبل مثل هـذه العروض ، لو كنت فى مكانى » ؟

ـ « اننى أقبل • والواقع أننى أنوى أن أحل محلك » •

ـ « حسنا ، وماذا ننتظر » ؟

وزحف البدوى الى داخل الزكيبة ، وهـذا هو ما حدث أيها المستمع الكريم •

اننا نحفر الأرض ، ونبذر الحب ونلوذ بشباك النبى محمد •

# ثلاث زوجات وثلاثة ازواج

**كانت** هناك ثلاث زوجات تدعين الحاجة وحنيفة وحميـــدة يعشن فى احدى المناطق المجاورة فى أجشه •• وكن لا يعملن فى الحقول مع أزواجهن لأنهن كن بعيدات عن العمل فى هذا المجال • وكن بعد القيام بأعمال المنزل يجتمعن داخل أحد بيوتهن أو أمام أحد المساكن يتفيأن فى الصـباح ظل أشـجار السنط الى ما بعد الظهيرة • وكن يحتسين القهوة ويثرثرن •

وذات يوم طرقن موضوع الأزواج • وقالت حميدة ان زوجها هو أغبى رجل فى الجماعة ، ولكن حنيفة والحاجة حميـــدة اعترضتا على هذا وقالتا ان زوجيهما أغبى منه •

ولم ينته الجدل الى نتيجة ، واقترب موعد الغـداء • فاقترحت حميدة ، التى كانت على يقين من أنها سوف تفوز أن يتوقفن عن الكلام ويبدأن العمل لاكتشاف ذلك • فوافقن وافترقن فى الحـال لاعداد الغداء وكان زوج حميدة هو أول من عاد من المزرعة هنـاك بجانب النيل • فأرسلت كلمة الى صديقتيها ، وفى لحظة كانتا هناك • وما ان اجتمعن حتى أحضرت حميدة الطعام لزوجها وقالت وهى تضع الصينية :

« يا أبـا عامر ، ان الخبز على السقف • والآن لابد أنه تعرض للشمس بما يكفى فأرجو أن تصعد ، وتحضره » • فصعد أبو عامر ولكنه استغرق وقتا أطول مما ينبغى • فسارت حميدة لترى ماذا حدث واندفعت عائدة وقالت :

« انظرن يا بنات ، ها هو ذا » • كان زوجها مستغرقا فى النوم فى منتصف الطريق أعلى السلم • ولم يستطعن أن يتخيلن كيف فعل هذا • ولكن حميدة صعدت ومست كتفه برفق وفى حذر ، لأنها كانت خائفة •

— « هيه ، هل أنـا صاعد أم نازل من السلم » ؟

فأفحمته حميدة بقولها : « وأنى لنا أن نعرف » ؟

فقال الزوج وهو يبتسم ابتسامة المنتصر : « اذا كان الخبز معى فاننى أكون نازلا ، واذا لم يكن معى أكون صاعدا » فضحكت حميدة وقالت وهى تنعم بانتصـارها على منافستيها : « اننى على يقين من أنه ليس معك » • وكانتا تقفان هناك فى سكون وهما تحبسان أنفاسهما وتفكران • وقالت لهما :

« أيمكنكما أن تتغلبا على ذلك » ؟ فالتفتت حميـدة والحاجة وحنيفة كل منهن للأخرى وبدأن يهذرن ويشرن بأيديهن • وعنـدما تبعن من ذلك تطلعن الى زوج حميدة •• وعجبا ! ها هو ذا مستغرق فى النوم مرة أخرى فى المكان نفسه الذى كان قد فعل فيه هـذا من قبل • وفعلت حميدة ما فعلته من قبل • فمست ذراعه برفق •

— « هل نمت مرة أخرى » ؟

— « نعم ، نمت ، ألا يمكنك أن ترى » ؟

— « هل أنـا صاعد أم نازل » ؟



ـ « يجب أن تعرف » .

ـ « اذا كان معى الخبز » ..

ـ « نعم ، أنـا أعرف . انه معك فى هذه المرة » .

ـ « أوه ، حسنا ، الآن نستطيع أن نأكل » .

وجاء الدور على الحاجة لتبين أن رجلها كان أشـد غباء من زوج حميدة . وقد أكدت لمنافستيها أنهما سـوف تريان أمورا عجيبة أكثر مما أرتهما حميدة . وعندما عاد زوجها من أعماله التى يقوم بها فى المخزن ، بعد الغداء ، مدت ذراعيها له باناء كبير ملىء بالذرة وقالت له انه ليس لديهم دقيق فى البيت وأن عليه أن يذهب الى الطحان ، ويقوم بطحن الحبوب . وفى الطريق الى الطحان بدأ الزوج يتساءل : « ترى هل أحمل اناء مليئا بالحبوب أم اناء مليئا بالمـاء » وانكمش الطحان قليلا ، عندما دخل سليمان ، وشفتاه تتحركان ، دون أن ينبس بكلمة . وكان الطحان رجلا . خبيثا فغطى الاناء بدقيق وغطى وجه سـليمان بدقيق .

« والآن أيها الرجل الطيب ها هو ذا دقيقك ، فتمتع بالخبز الذى تصنعه لك زوجتك » .

وكانت الشمس التى تهرع نحو الغرب ترسل شواظا من نار . وعندما رأى سليمان شجرة وارفة الظلال وهو فى طريق العودة ، لم يطاوعه قلبه على أن يترك الظل الجميل بنسيمه العليل ، دون أن يتفيأه . فوضع الاناء بجانبه وجلس ، ولكنه شعر بالنعاس يدب فى جسده وقال لنفسه : « لا بأس من النعاس بضـع دقائق » .وذهب لينام . وقـد حدث ذلك عندما كان الطحان فى طريقه عائدا للبيت .. وضحك عندما رأى سليمان . وبينما كان يرقب الرجل النائم ، خطرت له فجـأة فكرة

طارئة ، ومضى يبحث فى جيبه بغير هدى ، وأخرج مقصا ثم مضى يقص جانبا من شاربى سليمان •

وصرخت الحاجة عند ما رأت سليمان بشارب واحد ، ووجه مغطى بالدقيق « أوه ، لا ، أنت لست زوجى » •

فقال الزوج : « حسنا » ؟

ــ « حسنا ماذا ؟ هيا انصرف ، واخرج من بيتى » •

فقال وهو يحرك سبابته فى جميع الاتجاهات : « اننى أعرف ، أعرف » •

ــ « ماذا تعرف » ؟

ــ « سأعود الى الشجرة • فاذا كنت نائما هناك فاننى أكون زوجك • واذا لم أكن نائما فأنا مع ذلك زوجك » • وانطلق بعيدا تاركا النساء يقمن بحل هذا اللغز • ورغم ذلك عاد بعد قليل • وكانت هناك ابتسامة تتخلل أسارير وجهه ، وبريق ينم عن الانتصار أيضا • وقال : « اننى زوجك • فأنا لست نائما هناك • فقد انتهيت من نومى وها أنذا يا حاجة » • ولم يخطر ببال حنيفة أنه كان فى وسعها أن تعمل خيرا من هذا • وعندما اجتمعن فى بيتها ، أعطت لزوجها كوزا صغيرا وقالت له انه ليس فى البيت زيت • فتمسك بحقوقه كرجل ، وقال انه ليس طفلا ليذهب ويقايض على ذلك فى الحوانيت • وأذعن عندما أوضحت له حنيفة انها متعبة جدا ولا تستطيع أن تخرج ، وان لديها ضيفات فى البيت • وسجل احتجاجا له بقوله « لن أقوم ثانية أبدا بعمل النساء ، أفاهمة أنت ؟ ان المقايضة على الزيت عمل تقوم به المرأة • وفلاحة الأرض عمل يقوم به الرجل » • وانصرف وهو راض بأنه رجل البيت ولكن فاته أن الكوز صغير • ودهش عندما أخبره صاحب الحانوت بأنه كان صغيرا جدا ولا يسع رطلا من

الزيت • ولم يكن لديه ما يقوله • وملأه صاحب الحانوت له • وأبى عبد العزيز أن يخدعه مجرد « ماتوكى » صاحب حانوت من الشرق • فقلب الكوز وقال :

« ها هو ذا ، هيا أعطنى بقية رطل الزيت » •

فمط صاحب الحانوت وجهه بقدر ما استطاع وفعل ما قيل له ، ولكنه لم يقل « أبله غبى عجوز » على الرغم من أن ذلك كان ما يعتقده وعاد عبد العزيز الى البيت وهو يغطى الكوز بكمه الطويل ويصرخ قائلا :

« مفاجأة ، مفاجأة » !

فقالت حنيفة : « أين الزيت » ؟

فقال : « ها هو ذا » ، وقدم الكوز مقلوبا رأسا على عقب • ولا تزال حميـدة وحنيفة والحاجـة يتجادلون لمعرفة أيهن هى التى فازت •

***

اننا نحفر الأرض ، ونبذر الحب بأيدينا ونلوذ بشباك النبى محمد

# صانع الشربات

**أمضى** بشير يوما طويلا حافلا بالعمل ؛ فعجلات الساقية كانت فى حاجة الى تزييت. وكان الماء المنخفض فى النهر فى حاجة الى من يوجهه الى بئر دولاب الماء ، وكانت احدى البقرات مصابة باسهال . وقد قام بمعالجة كل تلك الأعمال بادئا بها عندما مالت الجوزاء نحو الغرب فى السماء ، وهو منهوك القوى ، وجائع ورأسه يدور . ومهما يكن من أمر فان والدته عيشه ، أعدت له وجبة شهية ، رقاقا ناعما ( سلابه ) بالعسل واللبن والزبد والبلح ، مشربا بعسل البلح ، المتخثر اللذيذ . وقال لنفسه انه جوزى أحسن الجزاء على ما بذل من جهد صادق طوال اليوم .. وأحس برغبة عارمة فى الثرثرة . وكانت عيشة هناك ترقبه بحنان .

ـ « أماه ، ماذا كان أبى ، رحمه الله ، يفعل » ؟

ـ كان يصنع شربات هنا فى البيت ويبيعها فى المدينة .

ـ « ولكن تلك على مسافة بعيدة » .

ـ « لقد كان يملك حمارا ، وبهذا كان فى وسعه أن يقطع الرحلة فى يوم » .

ـ « وكيف تصنعين شرباتا » ؟

ـ « أتريد أن ترى المعدات ؟ لقد احتفظت بها فى حالة جيدة » .

ـ « أريد بطبيعة الحـال يا أماه » .

ـ « غدا فى النهار ، يا بشير » .

ـ « خبرينى بالعناصر الداخلة فى تركيب الشربات ، فى غضون ذلك الوقت » .

ـ « أنـا أعرف ذلك عن ظهر قلبه » .

وأوضحت له ذلك .

وتعلم بشير أسرار المهنة ، وبعد أن قام برحلتين فقط اكتشف أنها مجزية أكثر من الفلاحة . وكان الذهاب الى المدينـة بهجة فى حد ذاته . ومع ذلك فانه لم يتخل عن الزراعة . فالزراعة كانت جزءا من مفاخر الأسرة . ولم يكن الناس يقتنون دواليب المـاء من أجل كسب عيش فحسب ، بل كانت أيضا مصـدرا للهيبة وبعد الصيت . ومن ثم فان بشير كان مزارعا يبيع الشربات فى المدينة .

وذات يوم كان يتجول مناديا على شرباته ، وهو يتغنى بما تمتاز به من صفات تستحق الثناء . كان فلاحا بسيطا فلم يعرف أن ما رآه كان قصرا . ولم يدرك أنه كان مارا بقصر الملك . وسمع الملك نفسه غناء بشير ، وأرهف أذنيه . كان مسترخيا فى شرفة ، بعيدا عن هـذا كله . وفتنه الصـوت ، وأمر باحضار بائع الشربات للمثول أمامه .. وتذوق الشربات وراقت له . وأمر باحضـار كوب منهـا اليه كل صباح . وتطلع بنظرة فاحصـة لبشير وقال آمرا : « أيهـا الوزير ، سيكون هذا الشاب بشير ، اعتبارا من الغد ، أول شخص تقع عليـه عيناى كل يوم » . اذ كان بشير وسيما ترتاح العين لرؤياه ، متهلل الأسارير خفيف الحركة . وقال بلهجة لا رسمية تماما : « هل يمكن أن

يبدأ تنفيذ هـذا الأمر فى الأسبوع القادم » ؟ فأجيب الطلب وذهل الوزير وقال : « يا لها من جرأة » !

وفرحت عيشة ووعدت بأن ترعى الأرض نفسها بمساعدة توبارل، أى عامل زراعى • وأعرب بشير عن امتنانه وانتقل الى المدينة • وفى كل صباح كان يأخذ شرباته وينطلق الى قصر الملك قبل أن تقع عليه عينا أى شخص آخر ، كما أمر • وكان الملك يشرب كل يوم شرباته من كأس خاص به وحده ، وكان فى كل يوم يعطيه لبشير ليحتفظ به • وكانت أوقيتان من الذهب تجعلانه كل يوم أغنى من قبل • ولم يعد فى حاجة الى أن يكون بائع شربات ، ومن ثم فانه حالمـا كان يخرج من القصر كان يتخلص من بقية شرباته على أية حال •

واشتد مقت الوزير لهذا الشـاب المدلل • فكيف يكون مجرد صبى أول زائر للسلطان فى الصباح ، قبل شخص أمضى فى خدمة مولاه سـنوات ؟ ثم انه لم يعرف قط مثل هـذا الكرم من السـلطان ، أوقيتان من الذهب كل يوم • انهما ثروة كبيرة جدا لصبى • وقـال لنفسه : « أوه لا ، هـذا محال » • وتمتم متذمرا لنفسه بكلمـات كثـيرة •

وذات صباح وصـل بشير الى بوابات القصر فى سـاعة مبكرة كالمعتاد وكان الوزير هنـاك لكى يلقاه ، ولكنه بدا رزينا ومحزونا قليلا • وتطلع الى بشير بنظرة أبوية حانية • وأمسك به من كتفيه وسار به جيئة وذهابا • وتوقف ونظر من عل وقال له : « من الآن فصـاعدا اياك أن ترى وجهك للملك » وسار مع بشير ، علاوة على ذلك ، وتوقف مرة أخرى • وفى هـذه المرة تفرس مباشرة فى العين وواصـل كلامه قائـلا :

« انني آسف يابني ، ولكن الملك أمر بهذا » • وبعد أن ران الصمت فترة طويلة قال مفسرا : « ان الملك يقول ان لك رائحة تعافها النفس • وأنه تفوح منك رائحة لا يمكنه أن يطيقها •• وفي هذه المرة كان الفتى هو الذي رفع رأسه ، وتطلع الى الوزير ، ولكن لم يجد لديه ما يفرج كربه • فقد تحول وجه الوزير فجأة الى وجه له أسارير صارمة قاسية ، لا يرى فيه أي أثر للعاطفة • ولم يترك لبشير وقتا طويلا ليفكر فيه • وقال له : « ولكن يا سيدنا ان مولانا يحب شرباتك حبا جما ، ولهذا ناولها له وأنت تسير الى الوراء ووجهك الى الباب •

وقال وهو يلوح في الهواء بسبابة نحيلة طويلة • « حذار أن يرى وجهك » •

وكان صوته أجش وسلوكه فظا ، وكان اجمالا شرسا وكان يقطر غلا وحقدا عندما أرخى قبضتيه عن كتفي بشير • ولم يدرك بشير حقا كنه ما يدور حوله ، ولكنه فعل كما قيل له •

وتشاور الملك مع الوزير وقال :

« لماذا يسير بشير متقهقرا بظهره في ردهتي » ؟

ـ « انه بطبيعة الحال يفعل هذا يا مولاي » •

ـ لماذا « بطبيعة الحال » ؟

ـ « انه الآن يدرك أن وجهه يضفي عليكم بهجة » •

ـ « واذن » ؟

ـ « واذن فانه يريد أن يحرمكم من هذه البهجة » •

ـ « ولكن لماذا ؟ ان هذا لا يضره بأيه حال » ؟



## صباح الخير ، يا من لم تنجب الا اناثا ، ولم تنجب ذكورا .

**يحكى** أنه كان هناك شقيقان ، أحدهما يدعى حامد والآخر يدعى شاكر ، وكانا يعيشان فى « الحوش » نفسه أو دار الضيافة نفسها . وكان لكل منهما جزء منه ، كما جرت العادة ، تفصل كلا منهما عن الآخر ساحة رملية واسعة ، أفردت خصيصا لأغراض عامة وللاستخدام أثناء الاحتفالات بالزواج والأعياد وغير ذلك من المهرجانات .

وكان لشاكر ولدان ، ولكنه لم يكن ميسور الحال مثل شقيقه حامد واعتاد أن يتباهى مفاخرا حامدا الذى لم يرزق الا بنات فى حين أنه رزق أولادا . وكان شاكر يقول لحامد « صباح الخير » . ثم يقول بعد وقفة : « أنت يا من لم تنجب الا اناثا ولم تنجب ذكورا » . وردا على هذا كان حامد يباهى بدوره . ويقول انه ينتقل من سرير من الفضة الى سرير من الذهب .

وكانت زكية ، صغرى بنات حامد ، تتضايق من كل هذا . وذات يوم سألت أباها لماذا ينتقل من سرير من الفضة الى سرير من الذهب . فهز حامد كتفيه ، ورفع حاجبيه ومد لها ذراعيه . وكفاه مفتوحتان .ولم تتحرك زكية : ولبثت تنتظر فقال :

— « حسنا ، انه يسخر منى ، يا زكية » •

— « لا ترد عليه بالسخرية يا أبى » •

— « ما رأيك فى أبيك أيتها الحلوة » ؟

— « انه خير رجل على ظهر الأرض » •

— « أوه ، لا ، أرجوك » • وأمسك بأصابعها الصغيرة الرقيقة•

— « حسنا يا نوار ، ان الله وحده يعلم أيهما أفضل » •

— « أى مـاذا » ؟

— « أعنى فتاة أو ولد » •

وجذبها برفق نحوه ، ووضع رأسها على كتفه ، فأحنت رأسـها ، فقبلها على الذقن •

وفى صباح اليوم التالى لم تكن الأمور على ما كانت عليـه • فحامد لم يقم بحركته المـألوفة ، عندما حياه بالطريقة المعتادة • واستمر هذا الأيام بل الأسابيع • وثار فضـول شاكر • ماذا جرى لحامد ؟ وكان حامد بدوره منزعجا ، فسلوكه المهذب لم يساعد شقيقه على أن يفهم • فبالتوقف عن الانتقـال من سرير الى آخر ، ظن أنه سـوف يجعل شاكر يتوقف عن السخرية منه ، ولكنه لم يفعل •

وكانت زكية تلاحظ فى صمت ما يعانيه أبوها من غم وما يتسم به عمها من جرأة ، ولم تجد ما يرضيها عندما آبدت بحب ما لديها من حجج ، فقالت لنفسها فى تصميم : « لقد حان الوقت لأن أعمل » •

« قالت لأبيها » : أرى أن عمى لم يغير أساليبه ، فى حين غيرتها أنت » •

— « لا ، انه لم يتغير • وقد يهديه نوار فى أحد هـذه الأيـام الى طريق المؤمنين » •

وقالت لنفسها : « أوه ، بل ان نوار فى حاجة الى دفعة » • ولكنها بدلا من ذلك قالت : « دعونا نساعد على أن يأتى ذلك اليوم قريبا » •

ــ « ذلك كفر وتجديف يا زكية • كيف يستطيع ابن رجل وامرأة أن ينتزع الأيام من يدى نوار » ؟

ــ « أوه يا نوار اصفح عنى • ولكن افعل شيئا لى يا أبتاه » •

ــ « أى شىء لك يا زكية ، هيا قولى » •

ــ « عندما يأتى عمى صباح غد ، أوقفه واطلب منه أن يرسل أكبر أبنائه الى الريف ، بعيدا خارج القرية الى الصحراء ، مع صغرى بناتك • وكانت تلك الابنة هى المقصودة بطبيعة الحال » •

واعتبر شاكر هذا الطلب بمثابة تحد ووافق • ولم يكن مخطئا فقد كان تحديا •

وانطلقت زكية ابنة حامد وابن عمها عمر بعيدا ، فى ساعة مبكرة صباحا ممتطيين ظهر جملين جز وبرهما جيدا • وكانت زكية ترتدى ثوب رجل ، وقد قصت شعرها ، وترتدى عمامة ناصعة البياض ، تلفها حول رأسها ، وجلبابا له جيوب واسعة على كل جانب من صدرها • وظلا لا يتبادلان كلمة واحدة خلال ميل أو نحو ذلك • عمر المتغطرس وزكية الصغيرة المقدامة المتحدية • وانقطع فجأة حبل الصمت اذ ماء قط تحت قدمى الجملين الراكضين • أول مخلوق قابلاه فى مسيرتهما • وكان القط نحيلا هزيلا • وماء يقول لعمر : « خذنى ، فقد أكون مفيدا لك يوما ما » •

فقال عمر متسائلا فى احتقار وهو يأبى أن يتطلع الى أسفل : « أى يوم ؟ » وأومأت زكية للقط ، وتمهلت لتساعده على أن يقفز

فوق سرجها • فقفز القط الى يد زكية الممدودة له ، واستقر مسترخة فى حجر زكية • ووصلت زكية وعمر الى مفترق للطرق • فقالت :

ـ « هذا هو مفترق الطرق الذى تخبرنا عنه جدتنا فى حكاياتها »

فقال عمر : « يبدو أنه هو » • ومشى وئيدا • فأنذرته زكية قائلة : « عليك أن تختار يا عمر فهذا الطريق على اليمين هو سكة الندامة ، والطريق على الشمال هو سكة السلامة •

فقال وهو يضحك ضحكة تنم عن ازدراء ظاهر :

« أنا ، ابن أبى ، لا أعبأ بالندامة أى شىء يمكن أن يغلب رجلا ؟ خذى يا ابنة عمى سكة السلامة » • وانتقلا عند مفترق الطرق • وافترق الفتى والفتاة وسار كل منهما فى طريق •

وأصيخوا بسمعكم أيها المستمعون جميعا ، لقد ركبت زكية الى موضع لم يره أحد ولم يسمع به أحد قط من قبل • ولا منذ خلق نوار السماء والأرض والطير والشجر والنهر • وكانت زكية ترتدى ثياب الرجال كما قلت لكم ، وقطها على حجرها ، ومضت فى طريقها •

وكان أول أناس التقت بهم زكية هى وقطها هى الرحمة نفسها وان كان قد أثار الاهتمام بها الغرباء • ودعتهما الى بيت « اسكالى »، وهى ساقية بأشجار سنط ، عديدة وكثيفة ، تهيىء برودة سماوية بجوار النهر الذى لا يبعد عن كثبان الرمل الواقعة شرقا •

وتطلع شخص فى البيت ، من الواضح أن له فراسة بالنساء ، بنظرة فاحصة لزكية • وكانت تتمدد بجسدها المنهوك القوى تحت أشجار السنط المتشابكة ، وهى تحتضن قطتها بشدة • فقال الشاب لأمه وهما على انفراد : « أماه ، ان هذا ليس الذى يحتضن القط ليس رجلا • بل امرأة » •

ـ « لا تكن مدعاة للسخرية ، فأنت تتخيل أشياء ثم تعتقد أنها كما تظن • وأنت ترى ما تريد أن تراه • والنساء هن اللاتى تراهن طوال الوقت • نساء • نساء » •

وقالت الأم لنفسها أنه منذ أن خلق العالم ، لم يجرؤ رجل على أن يأتى لبلدهم وعلى هـذا كيف تستطيع امرأة أن تفعل ذلك ؟ هل هذه هى نهاية الزمن ؟ وأبى الشاب أن يتخلى عن رأيه ، وأصر على أن الزائر امرأة • ولكى تضع السيدة العجوز حدا لهذا الجدل الذى لا ينتهى اقترحت أن يعملا شيئا للتأكد من الحقيقة : ولم يستطع الابن أن يفكر فى طريقة •

فقالت الأم : « اسمع يابنى ، عندما نهجع هـذه الليلة دعنى أضع قصعة من اللبن بجوار سريرك ، وأخرى بجانب سرير الغريب • فـاذا تحول لبن الغريب الى لبن حامض وتخثر فى الصباح فأنت اذن تكون على حق ، ويكون الغريب امرأة متخفية فى ثياب الرجال كما تزعم » • وتلبث القط بينما كانت تتكلم فالتقطه الشاب ، وأخذ يلاطفه ويربت على ظهره • وواصلت الأم كلامها قائله :

« ومن جهة أخرى اذا ظل اللبن كمـا هو ، فعندئذ يتضح أنك تتخيل أشياء ، ويكون الغريب رجلا » •

واقتنع الشاب ، على الرغم من أنه كانت تراوده الشكوك قليلا • ولم يكن على يقين مما اذا كان الغريب سـوف يبيت الليلة • فأكدت له أمه ذلك ، اذ كان الغريب متعبا جدا ولا يستطيع الركوب والسفر •

وفى صباح اليوم التالى اندفعت الأم والابن ليريا قصعتى اللبن • فذهلا • اذ لم يحدث شىء • فاللبن فى كلتا القصعتين كان لبنا ، مجرد لبن • ولم يكن لبنـا زباديا • وبجوار سرير الغريب كان القط وهو منطو على نفسه ، ومخلباه ممدودان ، وعيناه الصغيرتان تلمعان •

فصاحت الأم : « ذلك لايمكن أن يكون » !

وقال الابن وهو يتفكر : « حكاية زوجة عجوز » •

وتثاءب القط النحيل ومد أطرافه ، وهو يفتح عينا ويغمض الأخرى •• وتشبث الشاب برأيه ، وأصر على أن الغريب امرأة • وارتابت المرأة فى هذا الأمر • لقد عادا الى حيث بدآ ، ولكن الأم أنهت النقاش مرة أخرى • وقالت :

« لا بأس من المحاولة مرة أخرى » •

ــ « ماذا سنفعل الآن » ؟

ــ « سوف نجرب البلح فى هذه المرة • فاللبن لم يفدنا شيئا » •

ــ « وكيف ، اذا جاز لى أن أسأل يا أمى العبقرية » •

ــ « لا تحكم على بانني « عبقرية » أيها الشاب » •

ــ « آسف يا أماه » •

ومضت الأم توضح الأمر • لسوف تضع بعض البلح بجوار سرير الغريب واناء ماء • وبعد تناول وجبة فيها قدر كبير من الفلفل الحريف ، سوف تكون فى حاجة الى ماء ، لتطفىء نار حلقها الجاف ، والى بلح لفمها الملتهب • فاذا ألقى الغريب بالنوى بعيدا وفى هذه اللحظة بلبث القط • وفى هذه المرة أمسكت به الأم وبدأت تلاطفه ، واصلت كلامها قائلة : « وعندئذ يكون الغريب رجلا ، أما اذا أسقطت النوى بالقرب منها فان الغريب يكون امرأة » •

وانزلق القط بعيدا فأخذت الأم تربت عليه برقة • وأصرت الأم ان الغريب ليس امرأة ، كانت لا يراودها أى شك فى ذلك ، مما حدث للبن والبلح • وقالت لابنها ان اللبن لم يكشف عن جنس

الغريب ، ولا البلح ، ولابد ان هنـاك طريقة أخرى • ولم يعد ابنها يجادل فى الموضوع ، وكانت سعيدة بأنه أخذ يرضخ لرأيها •

وقالت الأم لابنها : « انني مسرورة منك » •

ـ « وأنـا مسرور لأنك راضية » •

ـ « ان عينيك لاتنمان على أنك مسرور • فهما جامدتان خاليتان من أى تعبير » وقالت آمرة : « هيا ، ابتهج » •

ـ « سأفعل يا أماه ، وأنـا حقا مبتهج • ماذا يدور فى ذهنك » ؟

ـ « انما أنت ولدى ! هيا ادع الغريب الى غطسة فى النيل ، وانزل فيه وأنت عار تماما • ولسوف يفعل الغريب مثلك ، اذا لم يكن لديه مانع • وأنت تعرف ما أعنى » •

ـ « تماما يا أماه ، أنت على صـواب فيما تقولين » • وتطلع الفتى وكأن الغشاوة قد زالت عن عينيه •

وقالت الأم موجهة خطابها للقط : « أيهـا القط ، هيا انزل ، ولا تجلس وحدك على أسكفة النافذة • فلم يضع القط ثانية واحدة ، وقفز الى حجرها من الموضع الذى كان يجلس فيه طوال الوقت الذى كانت فيه الأم والابن يتحادثان •

وانطلقت زكية والابن ، المتشوف لمعرفة الحقيقـة ، الى النهر للسباحة وزكية تمسك بقطها فى حجرها ، وهى تلاطفه ، بينما كان القط يتظاهر بأنه مستغرق فى النوم كشخص جرى ألف ميل • وبجوار ضفة النهر ترجلت زكية ومضيفها المرتبك من جواديهما وقيداهما فى نخلتين تطلان على النهر • وبدآ يسيران الى أسفل ، وعجبا ! لقد كان جواد الفتى يجرى بعيدا بسرعة تفوق سرعة أى جواد من قبل • فتطلع الفتى الى الوراء ، كان الجواد يرفس برجليـه الخلفيتين ويرفع الرجلين

الأماميتين عاليا ويهز رأسه بعنف وهو فى أشد حالات الهياج • فجرى الفتى ليمسك به ويعمل على تهدئته • وتوقفت زكية بجوار ضفة النهر وهى تشاهد هذا والقط يتطلع الى أعلى والخبث يشيع فى نظرته •

وبعد ساعة أقبل الفتى وهو يجر جواده خلفه كما يجر كبشا • وكانت زكية هناك مبللة ، وتتصنع الفزع •

وقال : « كل شىء على ما يرام الآن • ان الحيوان الغبى يهيج بلا داع • وها هو ذا وديع كما كان عندما نزل الى النهر • والآن هيا بنا نغطس » • وشرع ينضو عنه ملابسه للقيام بالغطسة • فعلقت زكية على ذلك بقولها : « ولكنى لن أقوم بها » •

ـ « ولم لا بالله عليك » ؟

ـ « عندما تغيبت طويلا فى المجىء قمت بغطستى » •

ـ « قومى بغطسة أخرى » •

ـ « كلا ، لن أفعل هذا » •

ـ « ولم » ؟

ـ « يعتقد أن من يسبحون مرتين فى يوم واحد ، يموتون » •

ـ « من قال هذا » ؟

ـ « هذا ما نعتقده ونعرفه فى بلدنا » •

وأصبحت زكية سيدة الموقف مرة أخرى •

ولم تكن الأم المتزمتة بالتى تغلب على أمرها • وقالت لنفسها انها لابد أن تصل الى قرارة الأمر • وكان الفتى الآن يريد أن يفعل أى شىء يقال له • وكان التعب باديا فى عينيه ، واليأس يملأ قلبه •

وقالت الأم لابنها أنه لو دعا الغريب الى تسلق أعلا شجرة فى القرية فان هذه سوف تكون فكرة رائعة • ففعل ولكن عينى زكية وأذنيها كانت هناك ثانية فى مكان ما • فقد أنذرت سلفا وفشل المشروع • وكان الفتى يتطلع اليها من أسفل ، ولكن زكية كانت تلبس سراويل طويلة ، جعلت من المستحيل أن يكتشف الفتى أى شيء يمكن أن يثبت وجهة نظره •

ولم تفلح هذه الطريقة أيضا • وفشلت بالمنوال نفسه كما فشلت طريقة قصعتى اللبن ونوى البلح والسباحة فى النيل • ولكن الأم ، يا لها من امرأة !

لقد اقترحت على ابنها قائلة : « فلنجرب شيئا جديدا » •

ـ « اننا لم نستنفد كل ما أوتينا من حكمة يا أماه » •

ـ « شكرا لك يابنى • هيا بنا نقتاد الغريب الى مخزن مجوهراتنا • فاذا ما اندفع الغريب ليجمع سبائك الذهب فهو امرأة ، واذا انطلق الغريب الى المجوهرات بلا مبالاة ، ومس الذهب والماس والفضة والأحجار الكريمة فان الغريب لايمكن أن يكون امرأة على الأرجح » •

وسارت زكية الى داخل المخزن كما اتفق عليه • وملأت زكية بهدوء قرعة بذهب وماس وفضة وأحجار كريمة • وقد فعلت ذلك بيديها الرشيقتين بسرعة عظيمة لدرجة أن الفتى لم يتنبه الى ما فعلت ، على الرغم من أنه كان يتطلع اليها بشدة • وتسلل القط كما يتسلل لص فى ظلام الليل ، والقرعة حول عنقه الأملس • وسارت زكية فى أعقاب الفتى وبرزت وهى صفر اليدين • وذهل الابن والأم • فها هى ذى هناك هادئة تماما وباردة مثل خيارة • ولم تكن عيناها منتفختين بفعل الشره كما كانت الأم تتوقع •

ويا أيها المستمع الكريم لحكايتي لنتوقف هنيهة ولنتذكر • أنا ، يا من يقص هذه الحكاية ، لست على يقين مما اذا كانت زكية • والقط ، والأم ، والابن قد عاشوا قبل أو بعد عهد النبي محمد ، عليه الصلاة والسلام • شيء واحد واضح لي • وهو هذا : ان الرجال والنساء والحيوانات واحدة ، لا تختلف طوال الوقت • واسمح لي أن أوضح هذا • ان محور الذكاء في هذه القصة هو القط ، وهو مخلوق صغير ، لا حول له ولا طول الا في مخالبه الصغيرة التي لاتؤذي أحدا • وها هي ذي وجهة نظري • منذ عصور قال محمد صلى الله عليه وسلم ما معناه • ان سبل الله لا يدرك كنهها أحد • وثمة سر هام احتفظ به الله تعالى ، ولم يفشه حتى لرسوله النبي ، هو أنه يضع سره في أضعف خلقه •

وبأسلوب الكلام العصري فان القط في هذه القصة وهب كلمة الله في مشيته الرقيقة الناعمة • وسوف أروي لكم لماذا أفسر القصة هكذا سريعا • لقد قام القط بعمل هذا كله للحفاظ على جنس زكية سرا • بل ان زكية لم تعرف أن القط قام ببعض الأعمال • فهي ، مثلا ، لم تعرف لماذا ركض الحصان بعيدا • وتصادف أن عرفت ذلك عرضا • اذ التقى القط بصديقة ، وأخذ يقول لها كم كانت زكية رفيقة به ، وكم كان الرجل المنتفخ الأوداج ، الذي صاحبها قاسيا عليه • وكانت زكية قريبة منهما تماما • وذهلت عندما روى القط حكاية الجواد للقطة الأخرى وقالت لنفسها :

« رباه ، ان قطي هذا شيطان مريد » • لقد حشا حفنة من الفلفل الحريف في دبر الجواد • وهمش بأظافره أعضاءه التناسلية بقدر لا بأس به • فاضطر الى أن يركض ، ورجلاه الخلفيتان ترتفعان حتى تصلا الى عنان السماء ، وأخذ ينخر وعنقه الى أسفل ، والحرارة تدب في سائر جسده ، وثار وتهيج •

وبينما كانت زكية تستمع الى القط وهو يروى للقطة الأخرى الحديث الذى دار بين الأم والابن أخذت زكية حذرها ، كما فعلت فى حالة قصعتى اللبن • وأخذت تتساءل مع ذلك • وكانت حائرة اذ لم تستطع أن تفقه وسائل الأم • فأى نوع من الأمهات هى ؟

وقالت زكيـة لنفسها : « ان الأمهات يضعن القانون • وهـذه الأم بالذات غير عادية فى صبرها • فاللبن لم يؤد الى النتيجة المنشودة لأن القط حذرنى ، ولكن لمـاذا تواصـل العمل على هذا النحو ؟ » وسألت زكية نفسها وبدأت تبنى صورة المشهد فى ذهنها • ورأت نفسها مرة أخرى وهى تغير خلسة القصعتين فى سـكون الليل ، وابتسمت راضية عن شقاوتها الشيطانية • وأفاقت مرة أخرى وعادت الى عـالم الحقيقة حولها ، ودفعت ذراعها بقوة لتختبر قوته وهو يمضى ، والمدى الذى يمكنها أن تقذف به اليه • وأحست بسعادة غامرة • ان فى وسعها أن تقذف بنوى البلح الى مسافة بعيدة كافية لأن تحبط محاولات هذه الأم غير العادية : التى تعرف نوع جنسها تماما ، ولكنها تؤثر أن تمضى قدما مع شـكوك ابنها • وامتلأت فرحا ، وأخذت حاجتها من البهجة والذهب والسـيوف والمدى ، لأنها كانت قد ذهبت أيضا الى مخزن الأسلحة • وقررت الرحيل • فطلبت ذلك ، وحزن المضيفان لرؤية هذه التحفة التى تثير العجب وتدعو الى الحب تتوارى الأنظـار • وأعطت الأم التى تأثرت كثيرا برحيل الغريب ، زكيـة ، قاربا مليئا بالشـاى والسكر والحلوى والدقيق •

ويا أيها المستمع الكريم ، اذا لم تصادف أبدا سخرية من قبل فها هى ذى واحدة • فقبل اليوم الذى تقلع فيه زكية بالقـارب تدفق فجأة دم الحيض غزيرا كأنه فيضـان • ولم تهتم كثيرا ورأت أن الوقت قد حان لأن تكون كريمة مع السيدة العظيمة التى كانت رقيقة معها ، ومع الابن الذى كانت له بصيرة نفاذة وان كان لم يستطع أن يدعم نظراته الثاقبة بدليل •

وبينما كان الطرفان يودع كل منهمـا الآخر كان القط الخبيث يعلق قطعة من القمـاش مشبعة بالدم على باب مضيفيهما • وفى لحظات تسلل عائدا الى القارب تبدو عليه مظـاهر البراءة مثل طفل وليد • وعادت الأم والابن الى البيت ويا للعجب كان الجواب على تساؤلهما يتدلى من عارضـة على البوابة • فضحكا من نفسهما وقبلا بعضهمـا وبكى الاثنان فى هدوء حزنا على المرأة التى ذهبت بعيدا وقطها تحت ذراعهـا •

والآن ماذا بشأن عمر ؟ أم هل نسيته وأنـا أروى لك مغامرات زكية ونوادر قطها الهزلية ؟

أرجو ألا تكون قد نسيت • حسنا هـذا هو ما حدث • بينما كانت زكية مسافرة فى النهر رأت جمعا على الضفة قرب اسكالى ، أى ساقية • فطلبت من نوتى القارب أن يتخذ طريقه نحو الضفة ، وتوقف• وطرفت زكية بعينيهـا مرارا عديدة • واسـتطاعت أن ترى عمر بين الجمهور ، ولكنها لم تستطع أن تصـدق هذا • فاقتربت منه فأدار وجهـه • كان فى حالة سيئة ، شـعره طويل وأظافره طويلة ويرتدى ملابس رثة • وكان منظره اجمالا يدعو الى الرثاء • وتصافحا وتبادلا عبارات المجاملة •

ـ « ماذا لديك فى القارب » ؟

ـ « صخور وحصى وأحجار كبيرة وصخور صغيرة » •

ـ « ماذا ، ولم » ؟

ـ « لكى أضربهم بها بشدة عندما أصل الى البيت » •

ـ « تضربين من » ؟

ـ « أهـلى » •

ـ « ولم » ؟

ــ « لكى أنتقم لمـا تعرضنا له من محن » .

ــ « وأنـا » .

وصدق عمر كل كلمة قالتها . فحصـل لنفسه على قارب ووسقه بأحجار وصخور وحصى وأقسم أن ينتقم هو أيضا لمـا تعرض له من محن عندما يأتى أهل لاستقباله . وشاهدته زكية يملأ القارب وعيناها تلمعان وعلى ثغرها ابتسامة .

ــ « من الذى يتولى القيادة فى الطريق ، أنت أم أنـا » ؟

ــ « أنـا بطبيعة الحـال . منذ متى تدل النساء الرجـال على الطريـق » .

ــ « حسنا يا ابن العم ، لا تصرخ » .

ــ وأقلعا للبيت وكل منهما فى قارب وبعد بضـع أيام شاهدهما أطفال القريـة الذين كانوا يسبحون فى النيل . وقبل أن يتوقف أى قارب منهمـا كانت القرية كلها تندفع لرؤيتهما . ونقل الأطفـال خبر وصولهما . وكان عمر هو الذى توقف بقاربه أولا . ولم يضيع لحظة . فما ان رأى قومه حتى شرع يقذفهم بأحجار وصخور وحصى . فتراجع الأب والأم وكل من كان هنـاك . اذ لم يكن هناك وقت للجدل معه . وأخذ يقترب منهم بشراسـة . فجرى البعض بعيدا واحتمى آخرون وراء الأشجار بجانب ضفة النهر . وكان كل شىء هادئا الآن .

ونزلت زكيـة ونوتى القارب بحقائب من الشاى والسـكر . فزغردت أسرتها وغنت . وكان عمر يرقب هـذا فى ذهول . لقد أصيب أفراد أسرته برضوض وجروح فى حين كان أفراد أسرة زكية يصفقون ويغنون ويلوكون السكر . وآلمـه هذا ، وشعر بأن كبرياءه قد جرحت وأدرك أنه سوف يكون هـدفا للسخرية فى القريـة . عندما يصل

الناس الى معرفة ما حدث . لقد قامت زكية بخدعة قذرة احتالت عليه بها ولابد من أن يرد لها الصاع صاعين . ولكن كيف ؟ وجلس هناك خائر الهمة محزونا .

وفجأة أشرقت فى ذهنه فكرة ما . فذهب الى الساحرة العجوز فى القرية ذائعة الصيت ، وكانت معروفة بمكرها وبلسان لاذع يقطر سما ، يخشاه كل أحد .

وقالت لعمر : « هون عليك . ولا تكتئب من أى شيء وفى فجر الغد هات لنفسك ثياب صياد سمك وشبكة صياد سمك . وانزل الى النهر مع أصدقاء وتظاهروا بأنكم صيادو سمك ، أنتم جميعا . وعندما تنزل الفتيات بجراتهن ليملأنها ماء قل لهن انك سـوف تعطيهن كل ما تصيده اذا ما قبلنك » .

وها هو ذا بجانب ضفة النهر مع أصدقائه فى الفجر .

وأقبلت الفتيات وهن يحملن جرارهن متوازنة غير ثابتـة على رءوسهن ، ومعهن صرات من البلح ليقايضن بها على سمـك . ووافقن جميعا . ما الضرر من قبلة ؟ قبلة تكاد تكون مغتصبة ؟ وقبلت زكية صياد السمك فى اشمئزاز ، بتحريض من صديقاتها . وكانت احداهن تهمس فى أذنها :

« اننا نستطيع أن نقايض خرزا بالبلح أيتها الحمقاء » !

وبدا التمرين مضحكا لها . فمضت تتعلق بأعنـاقهم وتمطرهم بالقبلات !

وفى اليوم التالى كانت زكية ذاهبة لزيارة صديقة لها . وكانت تغنى وهى سـائرة فى الطريق . فصهل حصـان عمر عندما رآهـا . فتطلعت الى الحيوان ويداها على وركيها وقالت :

« صمتا ، يا دابة عمر والا فانى سوف أدفعك بيدى الى بيت صاحبك الى الوراء ، وأرجلك الأربعة أولا . أتسمع ما أقول » ؟

ـ انه لن يفعل . وعليك أن تجربى ، وهأنذا آت » .

وكان هناك عمر . فصعقت زكية وتملكها الخجل . كيف اتفق أن يكون هناك . هل انشقت عنه الأرض ؟

وقال عمر لزكية : « اسمعى أيتها العاهر . لقد قبلت ثغرك الكبير فى مقابل سمكة . مجرد سمكة . ثمن رخيص ، أليس كذلك » ؟

فتميزت غضبا وحنقا ولكنها كانت عاجزة عن الفرار وعاجزة عن أن تقول أى شىء . فقد كانت مرتبكة . وفيما بعد تمالكت قواها وتذكرت . لقد اعتاد عمر أن ينام وحوله ثعبان كوبرا مخيف ، ثعبان وأسد ، تحرسه حراسة تامة . وكانت هذه فرصتها . وقرب الفجر سارت الى داخل مسكن عمر ومعها حمل مشوى مقطع الى قطع صغيرة لذيذة . وكان طيب رائحة اللحم المتبل أكثر مما يحتمل الحراس . وأعطت كلا منهم قطعة فانقضوا جميعا يلتهمون الوجبة التى منحها لهم الله . وأيقظ صوت المضغ والقرقعة عمر . فتحرك فى فراشه ، ودعك عينيه الوسنانتين ليرى ما يحدث . ويا للعجب ! كان أمامه شكل متعدد الألوان لوحش له قرون حول شبح لجسد ، بدا كما لو كان مشتعلا بالنار .

فتمتم بصوت لا يكاد يسمع : « من هذا ؟ ما هذا » ؟ فسمع صوتا عميقا أجش لوحش مريع يتهته قائلا :

« انه ليس الا ملاك الموت الصغير » .

وتردد صدى الصوت . وران الصمت ثم انطلق الصوت هادرا مرة أخرى : « ان ملاك الموت الكبير لن يتأخر طويلا » .

وأردف يقول فى قنوط « ليقوم بالعمل » . وأصـداء الصوت تتردد ثم صمت تـام . فالموت يطوف جيئـة وذهابا وفى كل مكان حولهمـا .

وسأل عمر : « ماذا على أن أفعل » ؟

فرد الصوت قائلا : « لاشىء » !

فقال : « لابد أن هناك طريقة » .

ــ « هل تستطيع أن تدبر قطعتين صلبتين من البراز » ؟

ــ « يقينا ، أستطيع أن أحاول » .

ــ « هيا افعل هذا » .

ــ « ها هم أولاء . اف ، اف » .

ــ « والآن هيا ابتلع واحدة وأعطنى الأخرى » .

ــ « وكيف أعطيك الأخرى . انها سوف تتهشم » .

ــ « صنعها فى قلنسوتك » .

ففعل عمر هذا . واختفت زكية .

كانت الشمس تنظر بحذر من وراء التل ، وكانت زكية بجرتها المتوازنة على رأسـها فوق قطعة مستديرة من القمـاش ذاهبـة الى النهر . وكان عمر يرقبها من أمام بابه . وأخـذت تسقسق كعصفور وهى سائرة فى الطريق ، وتغنى قائلة :

« أوه يا عنبى أنت أرجـوانى اللون تسر النـاظرين . وأنـا أرويك بيدى ، آه يا عنبى » . ولم يستطع عمر أن يفهم . لقد أهينت أمس فقط ومع ذلك فانها تتصرف كما لو تكن قد أهينت من قبل .

كيف يمكن أن تكون سعيدة طروبا على هذا النحو ؟ ولم تدم حيرته طويـــلا .

فما ان صهل جواده حتى أخذت زكية تنتهره بنفس الأســلوب الذى انتهجته من قبل . فأفحمها عمر بالطريقة عينها وكان سعيدا لأنه أحرز نقطــة أخرى ، ولكن زكيــة لم تكن بالشخص الذى يغلب ، وقـــالت :

ــ « وأنت أيضا ، اسكت مثل حصانك » .

ــ « يا سيئة الأخلاق ، يا قليلة الأدب » .

ــ « ولكننى أعنى هذا ، يا ابن العم » .

ــ « أنت وفمك الذى لا يطاق » .

ــ « ما العيب فى فمى » ؟

ــ « ان له رائحة كريهة ، رائحة نتنة » .

ــ « لسوف أضربك حتى تخر صريعا » .

ــ « ولكن رويدك » !

ــ « وماذا أنتظر » .

ــ « دعينى أوضح لك » .

ــ « هيا امض فيما تقول والا .. » .

« هناك قطعة صلبة من البراز فى قلنسوتك ، وربما أخرى فى أمعـــائك » .

وود عمر لو استطاع أن يقتل نفسه . فتلك كانت هى الحقيقــة التى لا مرية فيها . واندفع وهو يغطى وجهــه بكفيه ، الى الساحرة العجوز المخادعة ، فى يأس . واستمعت اليه كمــا يفعل الرواقيون .

فالماكرة تفعل هذا عادة . وتمتمت وهمهمت . وحدقت فى السقف وأخذت تفكر تفكيرا عميقا وباحت له بما تفتقت عنه قريحتها من اقتراح مروع . على عمر أن يطلب يد زكية ليتزوجها . وكان هذا كثيرا جدا بالنسبة لعمر ، ونجحت فى أن تتحدث معه فى هذا الأمر ، ولم يضيع عمر أية لحظة .

ان عمه لم يكن بالذى يعارض كثيرا فى خطبته ولكنه لم يكن على يقين من ذلك .

ــ « لقد كنتما قريبين من بعضكما لفترة طويلة تسمح بالزواج فهل يكتب التوفيق للزواج ؟ أعطنى فرصة » . وحمل الرسالة لابنته .

فقالت : « ولم لا » ؟

ــ « أنا لا أقول شيئا . اننى أنقل رسالة يا سيدتى الكريمة » .

ــ « دعنى أتزوج منه ، أرجوك يا أبى الكريم » .

ــ « ولكن بطبيعة الحال يا زكية ، اذا كانت هذه هى رغبتك » .

ــ « أرجو ألا تكون قد رفضت طلبه » .

ــ « لا وحق الله . فلست أنا الذى يتزوجه بل أنت » .

وبدأت عمليات الاعداد التمهيدية للزواج . وعمليات الاعداد الأولى ، أيها المستمع الكريم ، كانت معقدة كل التعقيد ، كأى حادث محتمل فى تلك الأيام . فقد كانت هناك « الفرجار » أى الهبة ، فى تلك الأيام . لقد تخليتم عنها الآن ، وحسنا فعلتم . بطريقة ما فحسب . اذ كانت الفرجار سنة جميلة . وكان أهل القرية جميعا يدعون الى مأدبة فخمة والى قضاء ليلة لطيفة حافلة بالغناء والرقص . وكانت

الأمسية يتم اختيارها بعناية ، وعادة تكون عندما يكون القمر فى أعلى منازله والرمال تحته ، تتألق مثل الذهب . ولكن هـذا لا يهم فأنت تستمتع بالأشياء كما يحلو لك ، ونحن نستمتع بها كما يحلو لنا . ولم تكن أسرة عمر بقادرة على القيام بأى عمل يعود بالخير بعد أن عقد الاتفاق . فبدلا من « الزردنهانات » الملونة من دمشق ، وكل الحرير والقماش من القاهرة ، والعطور اللطيفة المغرية من الجزيرة العربية ... وخشب الصندل وكل شىء ملأ أهل عمر زكيبتهم المغلقة باحكام ، وكان ذلك هو العرف السائد بأحجار ، وروث بقر ، وليف نخيل . وكانت أمسية جميلة . وكان الرجال والنساء يأكلون فى افراط ويغنون ويرقصون فى الصباح .

وتترنم جماعة قائلة : « ألا يساورك القلق من أن تلومك العروس » ؟

فترد عليها جماعة أخرى تقولها : « على أى شىء » .

فيرد عليها الآخرون بقولهم : « لأنك انصرفت قبل الفجر » .

وكانت هذه من أجمل الفرجارات .

ويحمل الصباح قصة أخرى نرويها لكم . فقد فتحت الزكائب . ولم تكن فيها زردنهانات ولا خشب صندل ولا عطور . وبدلا من ذلك كان فيها نوى بلح وروث وليف نخيل . وأحس حامد بأنه قد أهين وأسيىء اليه . ولابد أن أخاه قد اعتقد أن هـذا هو كل ما تستأهله زكية . لقد كان لايزال حاقدا عليه لأنه رزق أولادا ، فى حين لم يرزق أخوه الا بنات . وشعر حامد بأنه فاتر الهمة ومحزون ، وانه أهين . أما زكية فكان لها رأى آخر ولم يفهم فأوضحت له ما تراه . ان نوى البلح يمكن أن يتحول الى عسل وليف النخيل الى حبال للثيران . وقالت :

ـ « ألا يمكنك أن ترى يا أبتاه » ؟

فقال وهو يبتسم ابتسامة عريضة : اذ أنه لم يستطع أن يسمح لنفسه بأن يبتسم ازدراء :

ـ « بلى • اهانة واساءة » •

ـ « ذلك ما يعتقدونه » •

ـ « فهل نستسلم لليأس » ؟

وبدأت احتفالات العرس • وأرجو أن تصيخ بسمعك لى أيها المستمع الكريم • لقد أحضرت زكية لنفسها بلاصا كبيرا ، وملأته بالعسل ، ولفته فى زردنهانة من دمشق وهى قماش حريرى أحمر اللون فيه نقط بيضاء ، وناعم الملمس • وألبسته ثياب عروس • وكانت العرائس فى تلك الأيام تلف على هذا النحو وكان على العرسان أن يجاهدوا لكشف نقاب من قدر لهن أن تكن زوجات لهم وذلك بالكلمات المعسولة ، وبالتفوق فى القوة البدنية • وكان البلاص هناك على فراش العرس ، قائما كعروس مغرية ، مرتدية ثيابا حريرية تفوح منها رائحة العطر وكل شيء • وتسلقت زكية الى السقف وجلست على حافة السطح وأخذت ترقب ما يحدث • كانت هناك العروس الألعوبة ، وفراش العرس المزين مرفوعا على قوائم •

وكانت هناك فى دار الضيافة بالخارج زغاريد ورقص وغناء ودقات طبول • وكان الكل فى نشوة ، ويتأهبون « للسفة » أى دخول العريس الى غرفة العروس ، التى ترافقها صويحباتها وقريباتها ، يترقبن اللحظة الخطيرة التى تتحول فيها فتاة من عذراء الى امرأة •

ودخل عمر فى اللحظة التى تصاعدت فيها الزغاريد واشتد التصفيق وأغلق الباب ، ولكنه لم يأت كعريس ، بل كان هناك

لينتقم لخيباته العديدة ، لا ليستمتع بعروس جهزت له على خير وجه ، ودخل دخول المنتصر ، وبسيف حاد ثقيل أطاح برأس العروس • وكان للدم الذى تفجر منها مذاق حلو فى فمه • فقال لنفسه ان هذا لايمكن وقال لنفسه بصوت عال والحزن يملأ قلبه :

« لمـاذا يا زكية يا ابنة عمى ، لمـاذا ! لقد كنت مرة وأنت حية ولكنك حلوة وأنت ميتة » •

فردت عليه زكية من أعلى بقولها : « هون عليك يا ابن العم عمر فأنا هنا على السطح ، وأستطيع أن أرى وأسمع ما أصابك • وها أنذا سالمـة وفى أتم صحة وعافية » • ولم يستطع عمر أن يصـدق ما سمع، ولكنه كان صوت زكية فصرخ دون أن يعرف أو يدرك •

ـ « يا ألله لابد أن هذه هى مشيئتك » !

فعلقت زكية على ذلك بقولها : « أرى أنك قد عرفت الله أخيرا • ولابد أنك فى حالة سيئة • فالمريض والمحتضر هما اللذان يطلبان منه النجدة • أما الصحيح المعافى الموفق فانه يتناساه • فهل أنت على ما يرام يا ابن العم عمر » ؟

ولم يبق لعمر الا القليل ليبتعد عن هـذا المشهد الذى تعرض فيه للخزى والامتهان • فأقلع بعيدا دون أن يراه أو يسمع به أحد • وان كان ذلك ليس بالضبط • فقد كان معه رفيق ، هو مرجان الذى كان العبد الأكبر للأسرة • وقد حرص على أن ترعاه وتطعمه الجوارى الصغيرات على خير وجه • وقد عرفه عمر منذ أن ولد ، وكان مرجان رجلا صالحا • وعندما كبر عمر ظل مرجان يتوسل اليه أن يقابل نعم الله بالبر والاحسـان • ولم يستطع عمر أن يكون متواضعا • وكان الأطفال فى القرية وفى الأسرة لا يهتمون به • ولم يكن مرجان مسرورا من سلوك شاكر أيضا • كان الأب والولد يزعجانه ، ولهذا ظل بعيدا عنهم جميعا •

ولكن كانت هذه هى ساعة الشدة • فأقلع بعيدا مع عمر الى حيث تأخذهما السفينة •

وأقلع عمر ومرجان بعيدا فى الليل • وقبل الفجر رست سفينتهما على جزيرة وكان مع عمر شبكة وكذلك مع مرجان • وصادا قدرا كبيرا من السمك وعندما انبلج النهار ، وعندما انطلقا الى البر ، اكتشفا أن الجزيرة كانت تدعى ساينتو • وباعا كل ما صاداه من سمك واشتريا بعض السكر والبن والزيت والدقيق واللبن • وأشعلا نارا لطهى وجبة وللحصول على شىء من الدفء • وعندما أرخى الليل سدوله استلقيا على الرمل وأخذا يثرثران • ولكن يا للعجب ! كان هناك وميض ضوء على بعد • ولكنهما لم يلقيا اليه بالا • فماذا يمكن أن يكون هناك سوى بعض الصيادين منهوكى القوى مثلهما ، مخلدين الى الراحة • ولم تكن لديهما الطاقة التى تتيح لهما أن يشغلا بهذا نفسيهما • وازداد وميض الضوء وتحول الى نار متأججة ولم يستطع عمر أن يقاوم فضوله • فقال لمرجان أن ينطلق الى هناك ويكتشف الأمر • وغاب مرجان وقتا طويلا ، واستبد بعمر القلق ، ولكن كل شىء أصبح أخيرا واضحا جليا • وكان عمر لا يكاد يستطيع صبرا •

فقال : « مولاى » وأبى أن يقول أكثر من هذا •

فسأل عمر : « ماذا تريد أن تقول لمولاك » ؟

ــ « ان ما نراه ليس نارا » •

ــ « امض فى كلامك يا مرجان » •

ولكن مرجان لم ينبس ببنت شفة •

ــ « هل أصبت بالجنون يا مرجان » ؟

ــ « اسمع أيها الفتى ! ان والديك لا يجرؤان على أن يقولا لى أشياء مثل تلك » •



ـ « آسف يا مرجان ، ولكن ... » .

ـ « ان الضوء هناك هو نور ملاك لفتاة » .

ـ « لا تقل هـذا » !

ـ « انها فتاة . فتاة متألقة » .

ـ « واذن ماذا تنتظر يا مرجان » ؟

ـ « ماذا تعنى يابنى » ؟

ـ « فتاة متألقة غير مسئولة أمام أحد ، ونجلس هنا نتثاءب » ؟

ـ « ما عساك تظن أننا فاعلون ؟ اننى لم أر قط فى حياتى فتـاة يفوح منها مثل هذا العطر وتشع بمثل هـذا النور والجمال .. انها لايمكن أن توصف ولكن » .

ـ « لا داعى لأى لكن يا مرجان » .

ـ « أوه ، اننى أرتجف تأثرا ، وآسف » .

ـ « والآن هيا اهدأ وعد ، واسألها ما اذا كان ثمـة لنا من سبيل لنلتقى بها ونتحدث معها . قل لها اننى أتشوف لأن أراها ، وقل لها اننا كلنا غرباء فى ساينتو » .

ـ « ان ذلك الجزء من الجزيرة هو ساتنو » .

ـ « حسنا ان ساينتو هو المكان الذى نوجد فيه ، وساتنو هو المكان الذى توجد فيه ، فهل هذا يهم » ؟

وعاد مرجان وهو يحمل أنباء . ولم يغب طويلا أيضا . فقد قالت له : « جميل أن تكون مطلوبا . قل لسيدك أن يأتى ومعه ثلة خيط فى يده » . وفعل عمر هذا . وأسلمت الفتاة نفسها له . انها على أية حال، كانت زوجته وكان هو زوجها . ولم يعرف عمر هـذا بطبيعة الحال ،

ولكنه كان ينتفض ، يملأ أعطافه الفرح والحب والهيـام .. والثقـة ها هى ذى غزوة أخرى فى سلسلة غزواته . ولم يكن من الممكن أن تخطر زوجته ، أى زكية ، على باله . كما أنه لم يخطر على بال مرجان أنها يمكن أن تكون فى جزيرة ساينتو ، وكانا لم يسمعا قط فى جزيرة ساينتو عن المصادفة والقدر ؟ وسم هـذا كما تشاء .

وكان عمر يعتزم الاقامة فى ساينتو ، طالمـا أن حبيبته تقيم فى ساتنو ، فيصيد سمكا ويبيعه ، ولكن الصباح الذى أعقب تلك الليلة الحافلة بالحب والهيام شـهد تحولا فى حظى عمر وزكية . اذ لم يكن قارب زكية هناك فى الصباح . فأقلع عمر ومرجـان وراءها ، ولكن مضت شهور قبل أن يتمكنا من معرفة مكان وجودها . وغريب أن يروى أنها كانت ، ولابد ، تهرب من مكان الى مكان ، وهما يطاردانها . وأنـا أقول هـذا لأنهما بعد أن تعرفا على قاربها راسـيا فى مكان غير بعيد عن الموضع الذى كانا فيه توسلا لها أن تقول « أهلا » ، ولكنهـا أبت أن تسمح لمرجـان أو عمر بأن يقتربا من أى مكان من قاربها . وكان القارب أكثر غرابة ، اذ كان مغطى تماما بقماش سميك لامع . ولم يكن فى الامكان رؤية أى شىء داخله ، فقد كان محجوبا عن الأنظـار .

وأبيا أن يقلعا ، وأبت أن تقلع . فقد كانوا جميعا منهمكين فى العمل وهما فى أماكنهم ، اذ كانا يحاولون أن يختلسا النظر الى ما وراء القناع الذى يحجب وجه القارب ، وكانت هى تتكتم سرها مثل قطيطة . ولكن كما يقولون ان لكل شىء حتما نهاية . وهكذا انتهى النزال . ولم يسلم أحد للآخر ولكن النزال انتهى . وها هو ما حدث :

بينما كان عمر يمشى وئيدا بجوار ضفة النهر ذات مساء توقف فجأة وأمسك بذراع مرجان وقال :

ــ « هل تسمع ما أسمع » ؟

ــ « أنــا لا أسمع أى شىء » .

ــ « حسنا ، ها أتتذا . هل سمعت الآن » ؟

ــ « نعم ، انى أسمع يا عمر . انه صوت رضيع يبكى » .

وكان هذا صحيح حقا .

وقفز عمر الى داخل القارب ونظر من خلال الستار .

كان هناك رضيع ، وتألم عمر ، فتاته معها رضيع ؟

أوه كلا ! ولكن هل كانت هى فتاته ؟ وحام الخزى على رأس عمر ، وأصــخ لى السمع أيهــا المستمع الكريم . لقد خرج عمر من القارب وقال لمرجان انه ينبغى أن يعجلا بالعودة ويقلعا بالقارب . ولم يبد مرجــان أية اعتراضات ، فأقلعا بالقــارب فى الليل ونزلا للبر فى ساينتو وبعد بضعة أيام رســا قارب يعرفانه فى ساتنو ، يلوح منه وميض الضوء نفسه ، والهدوء نفسه . وسار مرجان الى هنــاك ليرى ماذا يجرى ، على الرغم من أنه كانت له حدبة . واحتال ليتخذ طريقه الى القارب ، ورأى وجها مألوفا وسمع صوتا مألوفا يقول : « يبدو أننى قد رأيتك منذ عام مضى » .

ــ « اننى أشعر بالشىء نفسه يا ابنتى » .

« ان سيدى عمر يريد أن تكون له كلمة معك » .

ــ « كلمة ؟ لقد كانت له واحدة . ومع ذلك لا يهم . قل له أن يأتى فى هــذه المرة ومعه عصا فى يده . ففى المرة الأخيرة كانت فى يده ثلة خيط ، وها هى النتيجة ، ولد ! اسمه ؟ ساينتو ! هــذا صحيح ، أليس كذلك ؟ هيا نحتفل بالمكان الذى وقع الحمل فيه ، باسمه .. دعه يأتى ويرى عاقبة « الكلمة » التى تبادلناها » .

وكان مرجان يتمتم وهو عائد « يا لها من فتاة لا تعرف الخجل . كلمة وحق قدمى . أكان لابد أن أعيش لأرى هـذا ؟ رب اغفر لى . فأنت تعرف أنه ليس لى دور فى هـذا . ونقل رسالة سيدى هو عملى الذى فرضـه الله على ، وهـذا ما سوف أفعله حالما أصـل الى هناك » . ونقل ، وهو طيب مثل كلمتـه لله ، الرسالة الى عمر الذى دهش بدوره .

وقال : « حسنا » ، وهز كتفيـه فرد مرجـان بقوله : « ليس حسنا » يابنى ، فهـذا زنـا . ذلك هو الاسـم . ولا سـبيل الى التملص منه .

وافتتن عمر بالمرأة التى أضاءت السماء والأرض . وكان النور ينبعث منها . وعندما تطلع الى ساينتو تملكه احساس بالفخر ، وجاهد بشدة لكى يعرض عن الشعور بالاثم الذى طرح عليه من غور بطنه . وكانت له كلمته فى تلك الليلة أيضا . ولدى عودته كان عليه أن ينتظر مرجان الذى كان يختم صـلاة الفجر التى يؤديها .

ـ « آه يابنى ، ها أنتذا قد عدت » .

ـ « نعم عدت » .

ـ « ولكن الشمس تظهر تدريجيا فى الأفق » .

ـ « أعرف هذا . وأنـا لم أستطع أن أجىء مبكرا عن ذلك » .

ـ « هل كانت لك معها كلمة » .

ـ « نعم يا مرجان . وأسأل الله أن يغفر لى » .

ـ « يابنى ان الله يقول فى كتابه انه غفور رحيم » .

هيا لتنال قسطا من النوم .

ـ « أنـا فى حاجة الى قسط من النوم يا مرجان » .

ـ « ألا فلتغتسل . ولتتطهر من الدنس فى باطنك وهيا صـل مرة » .

ـ « ولكن الله بكل شيء عليم . وأنـا لم أصل قط من قبل وسوف يعلم ما بين جوانحى ، اذا ما جلست على حصـيرة وخاطبته لأول مرة . وهو لن يعرف صوتى اذ أنه لم يسمعه قط من قبل » .

ـ « أرجوك ، أرجوك ان الله قال فى كتابه انه يعلم ما نخفى فى صدورنا ويعلم ما فى الأرحـام ، ومتى يسـقط لنا المطر ومتى يموت انسان . وقد حجب عن بصرنا خمسة أشياء لا يعلمها الا هو » .

« أوه يا مرجان أنت تجيد الكلام ولا سـبيل الى مجاراتك فى حكمتك » .

ـ « ليست حكمتى ، بل حكمة الكتاب الذى يجمع حكمـة العصـور » .

ـ « أنت على حق يا مرجان . لسوف أغسل اثمى من جسدى ، وأتطهر ثم أصلى طالبا الغفران » .

ـ « ذلك هو ولدى . امض قدما » .

وفعل عمر هـذا . وما ان انتهى من المهمـة حتى كان مرجان هناك يحمل أنباء . ان قارب الفتاة المتألقة قد أقلع مسافرا عندما انبلج الفجر . وقد كنت هناك فى ساتنو . فسر عمر وقـال : « ألم أقل لك يا مرجان » ؟

ـ « قلت لى ماذا » ؟

ـ « انها تعرف ما تفعل » .

ـ « أنـا لا أفقه ما تقول يا سيدى » •

ـ « هذا أمر بسيط يا مرجان • ولا تكتئب من لاشىء » •

ولم يكن مرجان فى حالة تسمح له بالجدل ، وان كان قد قـال لنفســه :

« انه يصف الزنـا بأنه لاشىء • ترى ماذا سيحدث للعالم » ؟

وقال لنفسه مذكرا : « ان الله قال لنا فى كتابه أنه لا تزر وازرة وزر أخرى » • ومع ذلك فان ساتو أصابته بالغثيان ، واقترح أن يقلعا بالقارب •

ولم يكن فى وسع عمر الا أن يوافق فأقلعا بالقارب • وسبل الله غير معروفة لنا نحن البشر • فبعد عام أحس عمر ومرجان بالحنين الى الوطن وقررا أن يعودا اليه • وابتلع عمر كبرياءه من أجل وطنــه ، واغتبط مرجان أشد الاغتباط لأن عمر « رأى النور » أخيرا فى كلمات الكتاب • ولكن أعرنى سمعك أيها المستمع الكريم • فهناك أشـياء غريبة • أرى لزاما على أن أرويها لك • فبعد عـام فرغ طعـام عمر ومرجان فأرسيا قاربهما فى جزيرة أخرى ليصيدا سمكا ، ويقايضـا بالسمك للحصول على بن وزيت وملح ودقيق •

وصـادا سـمكا ثم انطلقـا الى الجزيرة لبيع سلعهمـا وشراء ما يحتاجان اليه • وكانا جد سعيدين بما عقداه من صفقات ، وتكشف لهما أمران فى العمليـة • أولهمـا أن الجزيرة كانت تدعى جزيـرة السيدة النخلة ، وثانيهما أن فتاة كانت تقوم بالعمل نفسه منذ شهور ، تبيع سـمكا وتشترى زيتا وملحا ودقيقا • وقد أثار هـذا فضـول مرجان ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة •

وجلس فى هدوء ، وتناول عشاءه مع عمر • وبينما كانا يسيران

أسفل النهر ليغسلا يديهما عقب تناول الوجبة ، شاهدا ضـوءا على مبعدة ، وصدق أو لا تصدق ، كان هو الضوء العادي .

ـ « أيمكن أن يكون هو نفسه يا مرجان » ؟

ـ « أنـا لا يراودني الشك فى أنه هو » .

ـ « حسـنا » .

ـ قل « أنت على صواب » ولا تقل « حسنا » .

وكان مرجان على صواب مرة أخرى . فعندما ذهب الى هنـاك كانت المرأة التى التقيا بها منذ عامين ، بهجـة للناظرين وفتنة تغرى الزاهدين . وكانت على وشك أن تخطر ببال مرجـان وان كانت قد قطعت شوطا طويلا . وقالت له أن يبلغ سيده بأنه يستطيع أن يأتى وتكون له كلمة معها اذا أراد ، وعلى رأسـه قلنسوة حمراء فى هـذه المرة . وفى خـلال دقائق كان عمر هنـاك ، ومعه قلنسوة حمراء وكل شيء ـ وأعنى بكل شيء عاطفة جياشـة يا عزيزى المستمع . وتعانقا وتبادلا القبلات وهام كل منهما بالآخر ، وافترقا فى الفجر . وكمـا يقول كبارنا ، كل من يذهب بعيدا يعود اذا ظل على قيد الحياة بعد ما يتعرض لمشاق السفن ومخاطر العيش . ويصدق هـذا المثل القديم حقا ، فالجماعة كلها عادت الى البيت يصدق على زكية وعمر ومرجان . وكانت قد مضت أعوام منذ أن ذهبوا ، ولكن ها هم أولاء هنـاك .. كلهم . وأنجبت زكية طفلة ثالثة ، كمـا تتوقع . واسمتها سـيدة ، اختصارا لاسم الجزيرة ، السيدة النخلة .

وكان قلب عمر مفعما بالجذل ، وكان شديد الميل لكى ينهل من مباهج الدنيا عندما وصـل . اذ لم تعد تشـغله حيلة زكية وأعمالها الهزلية . وغمر شيء من المـاضى المظلم هيامه بالفتاة المتألقة فى الجزر . وابتهج بحب تملك كل جارحة فيه تماما . وكانت زكية خارج خطته ،

أما المرأة التى كان يحبها فكانت مجرد حلم • وكان عليه أن يتزوج امرأة لها وجود فى الواقع ، وأن يستبعد هـذه المرأة الخيالية من ذهنه أيضا • آه انه يتقلب فى فراشـه ، ولا يفكر فى شىء •

وتمت ترتيبات الزواج • وكان الحفل يوشـك أن يبدأ ازاء خلفية من قدر كبير من الطعام والغناء والفرح واللهو فى جميع أرجاء القريـة •

ولم يكن هذا فى نظر والد عمر الا عرس عمر ، ولكنه كان أيضا فرصة لاظهار أنه لم يغب عنهم •

وران الصمت عندما بدأ الحفل الدينى بتلاوة آيات من القرآن • وكان يمكنك أن تسمع صـوت سقوط دبوس ، اذ كان كل من حول الحلقة ينصتون ورءوسهم منحنية فى اجلال ، وخرست الأصوات العالية فى الخلفية فى خشوع •

واستمر الصمت بعد آخر كلمة فى الآية « آمين » ، ولكنه تبدد عندما تجاسرت جارية على دخول حلقة الرجال الكبرى وهى تحمل فى يدها طفلا جميلا • فأسقط الشيخ ، الذى كان يوشـك أن يوقع على عقد الزواج الريشة فى المحبرة ، ووضـع على الأرض دفتره الكبير . وتطلع الى أعلى • وكانت الجـارية فى وسط الحلقة تقريبا ، وأخـذت تنادى : « يا ساينتا يا ساينتا » ذلك للطفل الذى سقط وراءها الى الخلف قليـلا • وصاحت : « يا ساينتا هيا تعال » • فتطلع الجميـع بدهشة فى ضـوء القمر ومصابيح النوى الصغيرة التى وضعت على مسافات طويلة ولا تكاد تفيد ضوء القمر •

ويا للعجب ! دخلت جارية أخرى ومعها طفل تجره خلفها أيضـا ونادت قائلة :

« يا ساتنا ! تعال » •

ساينتنا ! ساتنا ! فجأة أدرك عمر أن هناك ماضيا ظن أنه لا وجود له الا فى عالم الأحــلام • ففرك عينيه • رباه ! أيمكن أن يكون هذا حقيقيا ؟

ودخلت جارية ثالثة ومعها فتاة صغيرة بارعة الجمال ، تمســكها بقوة فى يدها ، ولكنها تحــاول أن تتملص منها ، مما زاده ارتباكا هو وضيوف حفل العرس • وتطلعت الى أسفل للفتاة الصغيرة وقالت وهى ترفعها عاليا الى وركها : « حســنا ، يا سيدة جزيرة النخــلة • هيــا اصعدى الى هنــا • أخائفــة أنت جــدا من أن تدورى بخفــة على الرمل » ؟

فتطلع عمر بشدة • ماذا يحدث ؟ ومن يقوم بعمل هــذا ؟ وظهر مرجان على المسرح وتطلع اليه عمر فى ارتياح ، وهو ينهض من السجادة التى كان يجلس عليها • وقال مرجان دون أن ينزعج أو يتأثر :

« نعم • هذه هى الجزر الثلاثة التى ذهبنا اليها » ••• ولم يكن فى حاجة الى أن يتم عبارته • فالسر الغامض ازداد غموضا • أتعرف ما حدث أيها المستمع الكريم ؟

لقد أحس بأن شخصــا يشــد جلبابه برفق • فتطــلع حوله ، ويا للعجب ! كان هناك أحد الأولاد • وتطلع الى أعلى رأسا ورفع يديه عاليا بقدر ما استطاع أن يصــل اليه • وأعطى لعمر ثلة خيط ، ومن خلف الولد الصغير برز ولد أصغر ومعه عصا أطول منه كثيرا ، وبدون رسميات أقبلت الفتاة الصغيرة ومعها قلنسوة حمراء • واتضحت الأمور لعمر ومرجان • وكان ضيوف الحفل يشبون على أقدامهم حولهم ليروا ما يحدث ، الا أن الغناء والفرح استمرا فى الخلفية • ان ثلة الخيط

والعصا والقلنسوة ، كلها كانت رموزا للزيارات الليلية للجزء الثلاثة وذكرته بـ « الكلمة » التى كانت له مع الفتاة فى كل مرة ، قام فيهـا بزيارتها . وقال مرجان : « أى شىء آخر يمكن أن تكون » ، فأومأ عمر برأسه موافقا . وتأجل العرس وتفرق الجميع . وسار عمر ومرجان فى اثر الجوارى اللائى وضعن سايتنا وساتتا والسيدة . وها هى زكية هناك ، بكل روعتها . ولم يتبادلا كلمة . وسارا بعيدا .

***

اننا نحفر الأرض ونبذر الحب ونلوذ بشباك النبى محمد .

***

# الفهـــرس




رقم الايداع ٨٧/٣٤٥١

الترقيم الدولى ٥ ١٣٤٢ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

أثارت النوبة اهتمام علماء ورحالة وشعراء . . لأنها بيئة أصيلة لها عراقتها ، إلى جانب أنها العروة الوثقى فى وادى النيل بين مصر والسودان ، كما أنها منطقة لها ملامحها ، إلى جانب تعبيرها عن سمات الوادى الأصيل .

ويضم هذا الكتاب حكايات شعبية حية ، لا يزال الناس يحفظون بعضها ، ويرددون بعضها الآخر ، وهى حكايات لها دلالاتها الأسطورية والفولكلورية وتصور ما تمتاز به الثقافة النوبية الأصيلة ، وما يكتنفها من عجائب ، والتى تمتد جذورها إلى عصور قديمة .

١٤٠ قرشــــة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب